

في أنوار النبوة

قطوف من السيرة النبوية العطرة

بقلم:

شروق محمد سلمان

1428 هـ . 2007 م

الطبعة الأولى 1428 هـ - 2007 م

ما ورد في هذا الكتاب يُعبّر عن رأي صاحبه

ولا يُعبّر بالضرورة عن رأي الجائزة

طبع بموجب إذن طباعة من المجلس الوطني للإعلام بدولة الإمارات

رقم (أ ع ش / 1501 تاريخ 2006/12/19م)

سلسلة مُحَكَّمَة تصدر عن

جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم

DUBAI INTERNATIONAL HOLY QURAN AWARD

ص.ب: 42042 دبي - ا.ع.م.

هاتف: 2610666 9714+ ، فاكس: 2610088 9714+

موقع الإنترنت: www.quran.gov.ae

البريد الإلكتروني: quran@eim.ae

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فلقد جاء سيدنا محمد ﷺ بالهداية والنور، وحمل رسالة الإسلام إلى الناس كافة، وكان رحمة للعالمين، وهداية للباحثين عن النجاة في مسالك الظلمة، فكانت شخصيته ﷺ صورة حية للدين الذي جاء به من رب العالمين، ممتثلاً أمر الله سبحانه وتعالى الذي وصفه بقوله في سورة القلم ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾

لم تكن شخصيته ﷺ شخصية عابرة في التاريخ، بل كان أنموذجاً للكمال البشري، ولذلك تعددت الدراسات والبحوث عن حياته ﷺ منذ مولده وحتى وفاته، ولعل علم الحديث الشريف والسيرة النبوية خير دليل على نشوء علم خاص بهذا النبي الكريم صلوات ربي وسلامه عليه، ومازالت شخصيته ﷺ تحظى بالاهتمام والدراسات المستفيضة عنه، لا من المسلمين وحدهم، بل ومن غير المسلمين أيضاً ممن أنصف الحقيقة العلمية، وذهب يبحث عنها فاهتدى ببحثه إلى أن (**محمداً أعظم عظماء البشرية**) أما أولئك الذين كان حظهم من الإنصاف قليلاً فلا يعتد العلم بهم، ولا يحفل التاريخ بشأنهم، فقد خانوا أنفسهم

بمجانبة الحقيقة، وخانوا العلم بتسخيره لأهواء وأحقاد لا يقيم العقلاء لها وزناً، ولذلك ستبقى شخصية المصطفى ﷺ الكاملة ميداناً واسعاً للدراسات والبحوث.

ولقد أخذت جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم مبادرة بدعوة الباحثين لتقديم دراسات متخصصة عن شخصية الرسول ﷺ وذلك بمناسبة الذكرى العاشرة لإنشائها، والجائزة إذ تقدم هذا الكتاب الذي بين يديك عزيزي القارئ إنما تقوم بأداء واجب نحو سيدنا محمد ﷺ إحياء لسنته، ونشراً لسيرته، والتزاماً بتوجيهات مؤسس الجائزة وراعيها صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي الذي أراد لهذه الجائزة أن تكون في خدمة كتاب الله وسنة نبيه ﷺ

فنسأل الله سبحانه أن يجزيه ويجزي كل من أسهم في تقديم هذا العمل العلمي خير الجزاء، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم

شكر واجب

أتقدم إلى الله بحمده والثناء عليه، جلّ وعلا وأحكم في ملكه، وأدّبَ وربّى عبادَه، علّمهم ما لم يعلم، وأرسل لهم كتبه ورسله، وهداهم إلى ما فيه نورهم في الدنيا والآخرة، وهو المتفضل في كل آن.

والصلاة والسلام على خير خلق الله، وأمينه المؤتمن في الأرض على رسالة السلام، الذي نعمت في ظلال سيرته حيناً من الزمن وأرجو الله أن تبقى أنوارها مشرقة في حياتي كلها.

وإني أشكر الشيخ الفاضل الدكتور عدنان النحوي على ما تفضل به بسماحة نفسه المعروفة فكتب كلمة للكتاب بعد أن قرأه بارك الله فيه، ولم يكتف بالقراءة والمقدمة بل تفضل بتدقيق الكتاب ومراجعته لغوياً، جزاه الله كل خير، وأطال عمره في طاعة وعافية فقد أكرم فأجزل.

كما أشكر الشيخ الفاضل الشيخ علي بن سعيد الربيعي الذي تفضل بقراءة الكتاب وشرفني بمقدمة أخرى أعتز بها.

ثم أشكر جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم التي أعلنت عن طباعتها لكتب السيرة النبوية ضمن نشاطاتها المتجددة في هذا العام.. فبارك الله لهم وتقبل منهم وأعلى قدرهم في الدنيا والآخرة.

والحمد لله الذي يسر السبل وأفاض بالهدى والعلم.

اللهم تقبل منا عملنا واجعله لك خالصاً وتجاوز عما فيه من خطأ برحمتك وجودك يا أكرم الأكرمين.

وصلى الله وسلم على خاتم رسله الأمين محمد بن عبد الله، صفوته من خلقه وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته الخيرين.

شروق . 1427هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم بقلم الشيخ: عدنان علي رضا النحوي

بين يديَّ هذا الكتاب الممتع: "كتاب في أنوار النبوة" لابنتنا شروق محمد سلمان. لو قرأ أحدنا عدداً من الكتب حول موضوع يميل إليه، ثمَّ جاءه كتاب آخر حول الموضوع نفسه، فربما لا يرغب في قراءته وقد شعر بالاكتفاء بما قرأ من الكتب السابقة. إلا ما يتعلَّق بالسيرة النبوية، سيرة خاتم الأنبياء محمد ﷺ الرحمة المهداة، فإن نفس المسلم تظلّ راغبة في قراءة كتاب بعد كتاب في هذه السيرة العظيمة دون أن يصيبها ملل أو شعور بالاكتفاء.

ولقد قرأتُ عدداً غير قليل من كتب السيرة في مسيرة حياتي، وما زلت أقرأ، حتى دفعت إليَّ ابنتنا شروق كتابها هذا، فقرأته قراءة متأنّية وأنا أشعر بالمتعة في تأمل متجدّد لمواقف الرسول العظيم محمد ﷺ، وأحداث سيرته قبل ولادته وبعد ولادته، لنرى عناية الله حانية دائبة عليه لا تفارقه أبداً.

سيرة متفرِّدة في حياة البشرية، كلما قرأها المؤمن تجدَّدت في قلبه صور الإيمان ومعاني التوحيد وعظمة الممارسة. وما أحوجنا نحن جميعاً اليوم إلى أن نعكف على تدبّر منهاج الله ـ قرآناً وسنَّة ولغة عربية ـ وتدبّر سيرة الرسول الكريم ﷺ، تدبّر إيمان وخشية، وتوبة وإنابة، لنتلمّس طريق النجاة في واقعنا المظلم الذي تشتدُّ فيه الظلمة وتتدافع فيه أمواجها.

ومما زادني متعة تلك اللغة الأدبية الجميلة، اللينة السهلة، المعبرة أجمل تعبير عما تريده الكاتبة عرضه. فما كدتُ أبدأ بقراءة الكتاب حتى مضيتُ به مستغرقاً متمتعاً حتى بلغت آخره.

ومع اللغة الأدبية جاء الأسلوب، أسلوب عرض السيرة، أسلوبٌ متميّز

بعناوين بارزة وفّقت الكاتبة باختيارها. فلم يكن الكتاب مجرّد سرد لأحداث، وإنما إبرازاً لمواقف أو خصائص وموضوعات. ولنأخذ نماذج من ذلك: الكون المظلم، ولادة النور، الطفل اليتيم، الطفل المبارك، الطفل العظيم، الشاب العفيف، التاجر الشريف، العاقل الحكيم، زارع الأمل، الداعية الصابر، إلى غير ذلك من العناوين المعبِّرة، اجتمعت كلها، فأوفت عرض السيرة، وأبرزت أهمّ ملامحها.

وأدخلتْ في عرض بعض المواقف تعليقاتها الغنيَّة التي تربط بعض الأحداث بواقعنا اليوم، مما أضفى على العرض قوةً ومتعةً وفائدة.

وإنَّ هذه السيرة العظيمة المتفرّدة لتكشف لنا من ناحية أخرى إعجاز القرآن الكريم الذي يسّره الله للذكر لعباده على مدى الدهر، فكانت السيرة في صورة من الصور تعبيراً عن القرآن الكريم، وتفسيراً لآياته، وتذكيراً بجلال الإيمان والتوحيد، والنموذج الأعلى لممارسة منهاج الله في الواقع البشري، أسوة حسنة للمؤمنين مدى الدهر، وللبشرية كلها.

وواضح من مادة الكتاب أن الكاتبة بذلت جهداً طيباً في دراسة السيرة من مراجع كثيرة ، حتى امتلأ قلبها بالصور المتلاحقة من هذه السيرة العظيمة، فألهمتها الأسلوب المتميز والعرض السليم.

وإني أشكر ابنتنا شروق على جهدها الكريم داعياً الله سبحانه وتعالى أن يتقبله منها قبولاً حسناً، وأن يزيدها إيماناً وعلماً وعملاً صالحاً.

الدكتور عدنان علي رضا محمّد النحوي

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم بقلم الشيخ علي بن سعيد الربيعي

الحمد لله والصلاة والسلام على خير خلق الله وعلى آله وصحبه ومن اقتفى أثرهم واستن بسنتهم إلى يوم الدين، وبعد

فقد اطلعت على رياض خضراء مسماة (قطوف من السيرة النبوية) للكاتبة المتألقة في كتاباتها الأخت / شروق محمد سلمان، فقد وهبها الله قلما يصوغ ذهبا ويضيء شهباً وينثر عجباً، استطال قلمها مع الحبيب عليه الصلاة والسلام في سيرته فبلغ السماء علواً، وتدانى له النجم سمواً.

كتابتها هنا في القطوف تأخذ الألباب والقلوب فتحلق بها على جنبات من نور النبوة وعلى إشراقات لخير البرية، فمرة تأخذ العقل بتنسيق آيات الكتاب وتارة أخرى تفيض من رحيق السنة وحيناً تقص أحسن القصص وأخرى تشنف الأسماع بأبيات القصيد

بذلت فيه جهدها فكانت الثمرة القطوف

جنتها من كل بساتين السيرة النبوية فكانت القطوف

خرج الكتاب سلسالاً كعسل مصفى لأنه القطوف

فلله درك قطفت وقطف غيرك فكان قطفك قطوف

وإني متفائل جداً بما تكتبه الأخت الداعية نوّر الله قلبها بأنوار وحيه وزادها نفعاً

والله أسأله أن يتقبله بأحسن القبول وينفع به من وصل إليه ومثل بين يديه ويجعله حجة لها ويثيبها به من الأجر أثقالاً ومن الحسنات أنهاراً.

كتبه خادم الوحيين / الشيخ :علي بن سعيد الربيعي
المشرف العام لأكاديمية حفاظ الوحيين العالمية

بسم الله الرحمن الرحيم

في أنوار النبوة

المقدمة

الحمدُ لله ربِّ البرايا، مجزلِ العطايا، وافرِ الهدايا، والصلاةُ والسلامُ على رسول الله خيرِ البرية، ودرّةِ العطية، وأثمنِ هدية، أرسله الله رحمةً للعالمين، بعثه بشيراً ونذيراً، وجعله سراجاً منيراً، فبلّغ ما أُنزِل، وعَلّم ما أوحِي، ودعا لما يُحيي، وكان في قولٍ وعملٍ كما قال ربُّ العزة ﷻ : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ الأحزاب: ٢١.

كانت سيرته مثالاً حيّاً لحياة المسلم الحق، كانت تطبيقاً عملياً لآيات القرآن، حُرِم من الخصوصية فلم تكن له حياةٌ خاصة أو أسرارٌ لا يجوز إفشاؤها، ضحّى بأهم مطلب تريده الفطرةُ البشرية وتحرص عليه النفسُ المؤمنة لتكون سيرتُه بين أيدي العالمين صفحاتٍ مضيئةً تُشرق بالنور لكل من يأتي إلى قيام الساعة، ولتزيلَ حجبَ الغفلة والجهالة عمن يظن أن تحقيقَ الإسلام في كل ميدان غير ممكن، ولتسلبَ أي حجة ممن يدعي أنه ليس في الإمكان تطبيق شرع الله متكاملاً في الحياة عامةً والحكم خاصةً.

فصلى الله وسلم على النور الهادي، والكمال البشري الراقي خيرَ صلاةٍ وأزكى سلامٍ ما دامت السمواتُ والأرض.

وبعد.. كانت البداية قبل سنتين حين قرأت عبر إحدى شاشاتِ القنوات الفضائية إعلاناً عن مسابقة بعنوان: (قطوفٌ من السيرة النبوية)، فطافت الفكرة

في أرجاء عقلي، وحلقت في جوانب روحي، فأحْيَت بعض آمالي، واستخرجت من الأعماق بعض أحلامي، وشعّ نورُها بين جوانحي، ودغدغَ قلبيَ الحزين فولّد الابتسامةَ على شفتي، وعادت إلى ذهني ذكرياتٌ قريبة حيث كنت أتمنى أن أكتب في السيرة النبوية بالفعل، ورسمتُ أمام ناظري أيكة كثيرة الأشجار، متشابكة الأغصان، يمثّلُ كلٌّ منها نوعاً من الأنواع التي أردت أن أكتب السيرة على شاكلتها، فمن فكرةِ الاستعراض والتحليل، إلى السيرة الموثقة، إلى موضوعاتٍ مختارة منها، مروراً بمعجم السيرة، وبالأسلوب القصصي الأدبي في سرد حوادثها، وغير ذلك من الأنواع الكتابية.

ولم يكن ذلك أولَ عهدي بالإبحار في عالم الأحلام في أجواء السيرة العطرة، فطالما تمنيت أن أحظى بشرف تعليم السيرة، وتناول أحداثها ضمن واقعنا مع جمعٍ من الطالبات في المدارس أو الكليات. إلا أن ضعف همتي وشدة تقصيري من جهة، وأسباباً خارجية من جهة أخرى جعلتني لا أنقل شيئاً من ذلك إلى عالم الواقع.

وجاء الإعلان يمد يده ليستنقذ بعض أحلامي، ويمنحني فرصة عظمى للعيش أياماً متواصلةً في ظلال السيرة النبوية، أتعرف ما غاب عني، وأستفيد من سَير أحداثها، وتعليقات العلماء عليها، وأطلق العنان لخيالي يجول في زمانها ومكانها، وأحاول على استحياء أن أتمثل شيئاً من أخلاقيات صاحبها، وأنظر إلى واقعي حسب ما ورد فيها.

فاشتعلت شرارةُ الحماسة ثم انتقلتْ إلى الواقع تترجم الأحلام، وتغوص في بطون الكتب، تسبح في التاريخ، وتحلق في الأجواء العطرة، وتخط بالقلم ما يفيض في النفس ويدور في الذهن.

وكانت إرادة الله أن أتأخر في تسليم هذا العمل عدة أيام فلم يدخل المسابقة، وبقي في الورق الذي احتضنه منذ مولده، وبقيت رغبة نشره في القلب حبيسةً تنتظر الوقت المناسب للعودة للكتاب مرة أخرى بالتنقيح والإضافة والتعديل لكي يظهر ويكون بين أيدي الناس.

ومع ما جرى من تطاول بعض الحاقدين في إحدى الدول الأوربية على النبي الكريم ﷺ ، وما أحدثه ذلك من رجةٍ في العالم الإسلامي الحي بفضل الله تعالى عاودتني فكرة إخراج الكتاب، فعدت له بفضل الله عز وجل أقرؤه من جديد، وأقرأ بعض كتب السيرة الجديدة أو بعض ما قرأته أيام كتابتي الأولى له، وقررت إجراء بعض التعديلات وكتابة شيء من الإضافات لاستكمال جوانب لم أوفها حقها الكامل من قبل تمهيداً لتقديمه للنشر.

حين بدأت الكتابة.. أجلْت طرفي في عالمي، وأذنت لعقلي أن يسبح في أحزانه ووقائعه ليعود حائراً من هول الواقع وأليم عذابه. واستعدت ما أعرف من أحداث السيرة العطرة، وبادرت إلى اطلاعٍ سريعٍ عليها لأحدد لعملي أربعة محاور مهمة أرى أننا نفتقر إليها، ونحتاجها في الوقت نفسه حاجةً شديدة، فقررت التركيز عليها تركيزاً واضحاً خلال تحليقي في سماء النبوة، تلكم هي:

1. الصبر والثبات من النبي والأصحاب: فما أكثر ما حولنا من فتن ومغريات، ومن مصائب وعقبات! وما أكثر ما تسلط علينا العدو أو غزانا في عقر دارنا بفكره وخُلقه وجنده! وما أشد ما يتعرض له بعضٌ منا من محاولات صدٍّ أو فتنةٍ أو إثناءٍ عن غاياتٍ ساميةٍ بعذابٍ شديدٍ وجهدٍ نفسيّ عنيف!

2 . القيادة: فالراعي قد ترك رعيته، وأهملها، أو يدعي أنه محافظٌ عليها قائمٌ بواجباته نحوها وهو لم يمتلك أدنى مقوماتها، أو يقم بأقل تكاليفها جهلاً منه

أو غفلةً! أو عمداً في بعض الأحيان! وفي حياة أسوتنا ملامح القيادة الصالحة لكل راعٍ مهما كانت رعيته، فالأب منها يغترف، والمدير بها يتصف، والقائد بها وبتميزها يعترِف.

وإن كنتُ قد ركزتُ على جوانب القيادة العسكرية فإن فيها ملامح قيادية عامة يستفيد منها كل قائدٍ مهما كان موقعه، كما أن الحياة النبوية والمواقف المحمدية في مجملها تحمل صفاتِ المربي الحنون والراعي الحازم والقائد الحكيم.. ويتضح هذا في مواضع كثيرة في هذا الكتاب وفي غيره من كتب السيرة النبوية.

3 . العزة : فقد وصلنا إلى قاع الذل، وآن لنا أن نتنسم روائح عزٍّ تليدٍ لعلّنا نشتاق إليه، ونسعى بجهدنا إليه، ونتخلى عن الفكر القائل: إن الصعود مستحيل، وإن الشرع وتطبيقه هو حلم من عالم الأساطير.

4 . التوازن : بين دينٍ ودنيا، وحياةٍ وعملٍ، وسببٍ وثقةٍ في الله، مع التركيز على الاستطاعة باستفراغ الوسع وأداء الجهد، دون إهمالِ تزكية النفس وترقية القلب والاتصال بالرب.

واخترت أن أحدد كل مرحلة بصفة نبوية تناسب أبرز ما كان عليه قدوتنا ﷺ، وصغتُها بقلمي بعد أن قرأتها بقلبي، وأسكنتُها أعماقي.

فهذه المحاور هي أهم القطوف التي أطلت عندها الوقوف، فأهدتني من عبقها طيبَ الجنى، هدأت معه نفسي، وسرى به قلمي، وجئت أقدم ثَمَرَه خَجْلى . ومع هذه القطوف الدانية لم أملك نفسي من التجوال في بستان السيرة العطرة فبدأتُ رحلةَ النور منذ مولد الهادي البشير، بل قبل مولده لأرى كيف أحال نورُه ونورُ دعوته ظلامَ الكون إلى نورٍ وهاجٍ قصّرنا في الاستضاءة به، فانتكسنا وكدنا نغرق في الظلام والله المستعان، وقد رأيت هذا كله مهمًّا لاستكمال الصورة عن

السيرة النبوية في مراحلها المختلفة، ولتتبع أحداث كل محور على امتداده في الحياة النبوية الشريفة.

ولم يضنّ عليّ أي موقف بقبسةٍ من نور النبوة، فلمحت خلف الكلمات معانيَ عظيمة، ومن أدق المواقف استشعرت قيما رفيعة، ونفث قلمي بعض تلك اللمحات بين الأسطر وعبر الكلمات، ووقف عاجزاً عن وصف بعضها فمضى يتناول الأحداث، ويحلق في سمائها مكتفياً بالحديث المجرد الذي يغني عن أي مقال.

هي قطوف، قد تفتقد التنظيم والسرد التاريخي المرتب، وقد تبدأ حدثاً ثم لا تواكبه إلى النهاية، فهي تُؤْثِرُ التنقل من فننٍ إلى فنن، لتأخذ من كلٍّ أصفى صفاتِ شجرته الأم، إنها تظل قطوفاً آثرتُ جمعَ المتشابه منها ليصير قطفاً متجانساً له لونٌ واحدٌ وشكلٌ متشابه، فاستدعى ذلك تأليفَ الحوادث التي ترتبط بالصفة التي جعلتها رابطاً لكل قطف، مع تناثر أجزائه حيناً هنا وهناك كما هو محور الصبر والثبات الذي ميز حياته ﷺ في مراحلها كافة. ثم كانت عندي وقفاتٌ أحببت فيها أن أخرج بشيءٍ من الخلاصة الطيبة من آثار تلك الدوحة النبوية، فكان (نور من السراج) يجتذبني لأنعم في ضيائه لحظات، أدوّن كلماتٍ فاض بها خاطري أثناء جولتي في رياض النبوة العاطرة فامتنع عن حبسها، ولم يرضَ بالاستئثار بها دون قلمي.

وإنني إن لم أتطرق إلى الواقع تطرقاً واضحاً ولم ألجأ إلى إسقاطاتٍ أو مقارناتٍ مباشرة إلا في مواطن قليلة فإنه ـ أي الواقع ـ كان ماثلاً في ذهني في كل موقفٍ وكل كلمة، ويمكن استشفاف الكثير من قراءة الكتاب، فلا صلاح للواقع إلا بالاستفادة من الماضي والبناء على أسسه القائمة والتي أهملناها وصرنا نبني من جديد هنا وهناك على أسس غريبة لذلك لا عجب ألا تقوم لنا قائمة ما دمنا

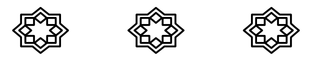
تركنا أسسَنا المتينة، وابتعدنا عن منابعنا الصافية الرقراقة.

كان ذلك شيئاً يسيراً من رحلتي (في أنوار النبوة)، واللهَ أسأل التوفيق في العمل، والإخلاص في النية، وأسأله قبول العمل والنفع به، وأن يمن علينا بالحياة الإسلامية الموافقة لشرعه، ولهدي نبيه، اللهم أذقنا حلاوة الإيمان، وحلاوة العمل في حب الرسول ﷺ ، وحلاوة حياة الإيمان. آمين

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على رسوله صفوته من خلقه، والنذير بناره المبشر بجنته.. نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه.

رجب 1427هـ الموافق آب 2006م

الفقيرة إلى خالقها: شروق ـ الشارقة



مدخل: الكون المظلم

حلّ الليل يغلف أرض الجزيرة العربية، لكنه لم يزد الكون ظلاماً إلا ذاك الثوب الأسود الذي تردّاه الكونُ ملقياً ثوبَه الأبيض، فليس حاله إلا استبدال ثوب بثوب، ولا يزيد لونُ الثوب ظلمةَ الكون على ما هو غارقٌ فيه بالفعل، إن ارتدى الأسود القاتم أو ارتدى الأبيض الناصع، فما هو إلا غشاءٌ خارجي ليس ذا أثر على الجوهر.

وأطل القمرُ حزيناً كما ذهب النهارُ حزيناً، أطلّ على أرض الجزيرة يرقب تحركاتِ أهلها، وتألم لما يرى من لهوهم ومجونهم وضلالهم، وتساءل حائراً: كيف يعبد إنسانٌ مكرمٌ بالعقل عن سائر ما حولَهُ من مخلوقات حجراً لا يضره ولا ينفعه؟ والأدهى من ذلك أنه يصنعه بيده، فكيف يعبد ما يصنع؟ وأولئك الآخرون يصنعون إلههم من عجوة يأكلونها حين ينفد زادُهم! وليس غيرُهم من أهل البقاع الأخرى بأفضل منهم حالاً، فكلهم في غيهم يعمهون.

ثم جاءت الشمسُ تستلم دور قيادة اليوم الجديد فلم تكن أحسن حالاً من ذاك القمر الحيران، وإنما بضيائها تفسح مجال رؤيةٍ أكبر، ومجال عمل أكثر لهم، وها هي تتميز غيظاً على أولئك النفر الذين تراهم في صحراء الجزيرة وقد ابتعدوا عن ديار أقوامهم، إنهم يتلفتون حولهم بحثاً عن حجر ليعبدوه بعد أن ابتعدوا عن إلههم الحجر الذي بمكة! رباه .. أيبلغ الإنسان هذا الدرك فيبحث عن إله هنا وهنا؟ ها هم يجمعون التراب في مكان واحد ليصنعوا منه تلاً صغيراً يصل إلى قرب سيقانهم، ثم يحلبون نوقهم على هذا التجمع الرملي ليجمد التراب بعد حين فيعبدونه! إنه الدرك الأخير من الانحطاط الفكري والعقدي، فهل يا ترى له من صعود؟

ويطل القمر من جديد قائلاً للشمس في أمل: (ما وصلوا الدرك الأسفل إلا وترقبي صعودهم عن قريب. ولا تنسي أن الأمر كلما ضاق اتسع، وأن الليل كلما ادلهم بدأ نورُ الفجر يبدده، وأنت بنفسك شاهدةٌ على ذلك). وتستمر دورةُ الليل والنهار، والكونُ في ظلمته وإن أشرقت شمسُه.

ها هي مكةُ اليوم في شغل وضجة، إنها مركز الجزيرة وقبلةُ أهلها، لكنها اليومَ حزينةٌ على خير شبابها (عبدالله بن عبد المطلب) إذ نذر والده وهو سيد أشرافها إن رُزق عشرة من الأولاد أن يذبح أحدهم لله عند الكعبة! فقد بلغ به الضيقُ مبلغا كبيراً وهو في وحدته ليس عنده إلا ولد واحد، وقريش كلها تعتز بالأولاد وتفخر بالنسل، وقد يعيره بعضها من خلفه أو أمامه تصريحاً أو تلميحاً، حتى إنهم نازعوه بئر زمزم[1] التي حفرها بنفسه وعرف مكانها إثر هاتفٍ جاءه في منامه فاستخرج كنز إسماعيل الدفين، لكن قريشاً قامت تنازعه وتطلب إشراكها فيه وهي تعلم أن ليس له من يمنعه دونها. واليوم قد حان موعد الوفاء بالنذر، فقد رزق ما تمنى، وخرجت القرعة على الولدِ الصغير خيرةِ الأولاد، وأحبهم إلى أهل مكة جميعاً، فقام أهلها رافضين ذلك، ولئلا تكون عادةً لكل أب ولكل ناذر، وها هم يتشاورون في كيفية تحلل عبد المطلب من نذره دون أن يضحيَ بابنه. واقترح أحدهم أن يحتكموا إلى عرّافةٍ بالحجاز، فقبلوا رأيه وضربوا أكباد الإبل إليها، فحكمت بالقرعة بين الفتى وعشرٍ من الإبل، فإن خرجت عليه زيدت الإبل عشراً عشراً إلى أن تخرج القرعة عليها، وقد كان، وفُدي عبدالله بمئةٍ من

---

(1) ذكر حفر زمزم وما جرى من الخلف فيها جاء في السيرة النبوية لابن هشام ج1، من ص142 إلى ص147.

الإبل[2] كما فدي جده إسماعيل نبي الله بكبشٍ من السماء، ونَعِم عبدُ المطلب بفتاه، ونامت مكةُ ليلتها آمنة مطمئنة بعد أيامٍ عصيبةٍ، وبقي الكونُ متأففاً مترقباً نوراً يضيء ظلمته، ويجلي كربته.

---

(2) انظر ما جاء حول نذر عبد المطلب ذبح ولده في السيرة النبوية لابن هشام ج1، ص151 إلى ص155.

الفصل الأول

ولادة النور

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾

ولادة النّـــور

المبحث الأول: الطفل اليتيم

وبلغ عبدُ الله مبلغ الشباب وتاقت نفسُ الوالد إلى الفرحة الكبرى بتزويج ولده الحبيب شمسِ كوكبةِ الأبناء الذين قرت بهم عينُه بعد طول وحدة واستهزاء من قومه.

ورغب الوالدُ المحبُّ في خير نسَبٍ لولده الأثير، فسعى إلى خطبة خيرِ بناتِ مكة خَلْقاً وخُلُقاً ونسباً، إنها آمنة.. درةُ بنات قريش، وأكملُهن عقلاً، وأكثرُهن عفةً، وأفضلُهن جمالاً وحسناً. وكان له ما أراد، فتم الزواج[1]، وقرت عين عبد المطلب، أما روحُه فحلقت شوقاً إلى ولد عبدالله: الحفيد المنتظر.

وما هي إلا أيامٌ حتى اضطربت بآمنة أحشاؤها، تعلن قرب تحقق حلم الجد، وعمران البيت بزينة الحياة الدنيا، وفي الوقت ذاته حزم عبدالله أمتعته للسفر في تجارتهم المعهودة.

ودّعته آمنةُ بوجهٍ منبسط، لا ينبئ عما في قلبها المنقبض، ملأت عينيها منه، وربتت كفه في حنانٍ أودعته كل ما في نفسها من أحاسيس المحبة والفرحة مع الحزن. وودعها آملاً في عودةٍ قريبةٍ واستئنافِ الارتشاف من كأس السعادة على يديها وفي بيتها ومع وليدها، وانطلق في رحلته الأخيرة التي لم يعد منها حياً.

وحزنت مكة على الشاب الوضيء، والحيوية الناضرة، والحماسة الدافقة،

---

(1) قصة زواج والدي الرسول ﷺ في السيرة النبوية 156/1.

وداعبت أحزانَ عبد المطلب وآمنة آمالُ الوليد القادم فكانت سلوةً من حزن، وعوضاً عن فَقد.

وجاء اليومُ الموعود، وما تكادُ آمنة تشعر أنها حامل لخفة الحمل عليها، ومع ولادتها تجسدت آمال الحياة كلها أمام عينيها في نورٍ ساطع أضاء لها ما حولها إلى قصور الشام[2]، فاستبشرت بوليدها خيراً، وأرسلت إلى جده الحزين تبشره ليسعد كما سعدت. وجاء لا تسعُه الفرحة يختطف الرضيعَ فيحتضنه متذكراً الولد الحبيب فرِحاً بالقادم السعيد.

ولم يدر هذا الوالدُ الجذلانُ بعظمة الطفل الذي بين يديه، بل النور الذي بين يديه، فقد انطفأت في هذه الليلة المباركة نارُ الفرس التي لم تخمد منذ ألف عام، وسقطت شرفات إيوان كسرى دون أن تصيب مَن هم بقربها، فيما غاضت بحيرة ساوة [3] دون سبب واضح، وانهدمت الكنائس حولها، و يحكي لنا الشاعر بعضَ تلك الأحداث:

أبان مولدُه عن طيبِ عنصرِهِ *** يا طيبَ مفتتحٍ منه ومختتمِ
يومٌ تفرسَ فيه الفرسُ أنهم *** قد أُنذروا بحلول البؤس والنقمِ
وبات إيوانُ كسرى و هو منصدعٌ *** كشملِ أصحابِ كسرى غير ملتئمِ
و النارُ خامدةُ الأنفاس من أسفٍ *** عليه، والنهرُ ساهي العين من سدمِ
وساءَ ساوةَ أن غاضت بحيرتُها *** ورُدَّ وارِدُها بالغيظ حين ظمي

(2) انظر حديث آمنة عن خروج النور يضيء الشام عند ولادتها في السيرة النبوية لابن هشام ج1، ص157 و158، وثمة خبر آخر ص165.

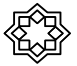
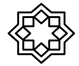
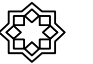
(3) انظر خبر سقوط الشرفات وخمود نار الفرس وخبر البحيرة في البداية والنهاية لابن كثير ج2 ص347.

كأن بالنار ما بالماء من بلل *** حزناً، وبالماءِ ما بالنارِ من ضَرَمِ [4]

وكيف لا تخمد نارُهم وهي رمزُ الوثنيةِ والبعدِ عن الله، وهذا القادمُ الجديدُ هو حاملُ قبسِ النور للعالم كله، ومُهدي السعادة الأبدية لمن توجه إلى الله وحده بالتوحيد في خاتمة رسالات السماء إلى الناس تعلن منذ بزوغِ نورِ حاملِها بزوالِ كل الوثنيات والعقائد المبتدعة أو المحرّفة ليعلوَ نور الدين الحق مضيئا في سماء البشرية.

وعزم عبد المطلب على أن يهيئ له أفضلَ ما يستطيع من تربيةٍ حسنةٍ جسمياً ونفسياً ولغوياً، وخطط لذلك الإعداد المرتقب بإرساله إلى البوادي كعادة العرب ليرضع في رحابها الفسيحة، ويتشربَ من لغتها الأصيلة، وتحلقَ روحُهُ تحت شمسها الصريحة.

وهذه الرعاية الحنون والبيئة الرؤوم والمحضن الدافئ موضع حديثنا في المبحث التالي: (الطفل المبارك).

(4) من البردة للبوصيري.

المبحث الثاني: الطفل المبارك

ولدته آمنةُ فكان ضياءً ينير قلبها وحياتها، واحتضنته وأرضعته وهي ترجو في قربه عوضاً عما مضى، وأملاً فيما بقي، وبهجةَ لحظاتها وأيامها.

ثم أرضعته ثويبة جارية عمه، فقد ألقى الله في قلبها محبةً منه لهذا الوليد، فانطلقت تبشر سيدها عبد العزى ـ أبا لهب ـ باستضافة الدنيا لابن أخيه الفقيد، فطرب لذلك الخبر وأعتقها[5]، فكانت بركة بشارتها ومحبتها له ذلك العتق من قيد العبودية، والسلوك في زمرة الأحرار الذين يملكون أمرهم وأنفسهم فلا سلطان لأحد من جنسهم عليهم، وكانت بركةً مستمرةً إذ شرفت برضاعته ﷺ ، فكان ذلك لها فخراً، وهو إلى اليوم يبقى لها عزاً وذِكراً، فقد شاء المولى تعالى أن يرضع هذا الطفلُ المبارك من لبنِ حرةٍ لا من لبنِ أَمَةٍ لا تملك أمرَ نفسها، فسبحان مَن يهيئ لعباده ما يناسبهم وفق حكمته.

وعاطفة الأمومة تلك عند آمنة لم تمنعها من حسن التفكير، ولم تطغَ عواطفُ القلب على صوت العقل وهو يقول لها: إن في بعده عنك كمالاً لعقله، وقوةً لجسمه، وفصاحةً للسانه، وفي ذلك علوُّ شأنه وأيُّ علو، ستسعدين به حين يكون بين يديك طفلاً صحيحَ البدن فصيحَ اللسان، يفوق أقرانه في القوة واللّسن وتمام الصحة، فضحّي يا آمنةُ بقربه، وارفعي مصلحته فوق راحتك وميلِ قلبك.

ولم يستمر الصراع طويلاً، لقد حسمت أمرها، وقررت السير على عادات

(5) خبر إرضاع ثويبة وعتقها ذكره ابن كثير في البداية والنهاية 353/2.

قومها، وإيثار صالح طفلها على لاعج قلبها، وجلست تنتظر المراضع.

وجاءت المراضع ينتقين الرّضّع لينتفعن مما سيقدمه لهن آباء الأطفال، لا سيما وأنهن قد أقبلن من سنةٍ شهباء أذاقتهم من مرارتها الكثير.

لكنهن لم يُقبلن على الطفل اليتيم، ولم يَقبَلن به قائلات: (يتيم؟ وما عسى أن تصنع أمه وجده؟) إلا واحدة منهن كتب الله لها السعادة، فقد حنّ قلبها عليه، وإن لم ترضَ به في بداية الأمر إلا أن قلبها تعلق به، وظل يحوم حوله وهي تبحث عن رضيع تأخذه، ولما أخذت صويحباتُها كل الأطفال ولم يبق لها طفل، عادت إلى ذاك اليتيم فضمته إليها وهي ترجو البركة والخير.

وحقق الله رجاءها في فورها ولحظتها، فقد كانت قد أقبلت بأتانٍ ضعيفةٍ لا تقوى على حملها ولا تسير بها إلا سيراً بطيئاً جعلها تتأخر عمن معها، وكانت معها شارف[6] لا تبض بقطرة، وكان طفلها الصغير يصيح من جوعه وليس في صدرها ما يهدئ ثائرة الجوع لديه أو يسكت سيل الدمع من عينيه، أو يأذن لهم بلحيظات من النوم لصراخه وهو يتضور جوعاً.

ولكنها في طريق عودتها إلى ديارها في بادية بني سعد واليتيمُ في حِجرها درّ لبنها، فرواه وروى صغيرها، ثم ناما، وحفلت ناقتهم بلبنٍ لذيذٍ، وانطلقت أتانهم تسبق مَن سبقها في رحلة القدوم حتى أخذ منهم العجب مأخذه، وتحولوا إلى المرضعة حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية يسألونها والدهشةُ تطل بارزةً من كل حرفٍ من كلماتهم: يا ابنة أبي ذؤيب، ويحك فأربعي علينا، أليست هذه أتانك

(6) شارف: ناقة مسنة.

التي كنت خرجت عليها؟[7]

ولما أشرق نور الوليد المبارك على ديار حليمةَ الجرداء اخضرت واعشوشبت، وأظل غنَمَها العجفاءَ فحفلت وسمنت، وما زال الخيرُ في ازدياد، فأيقنت حليمةُ أن لهذا الصغير شأناً، وأن له كرامةً ومنزلةً عند الله، فاستبشرت به، وأحسنت رعايته، وأطلقته في جو البادية الصافي وعينُها عليه ترعاه وتلحظه، وتأمل له كل خير ويسر.

وإن المتأمل في عادات العرب تلك يُعجب بها، وبكمال عقولهم وحسن اهتدائهم إلى ما يصلح للمرء في دنياه، وتفضيلهم لآجله عن لذة عاجلهم بالاستمتاع ببنيهم في تلك السن التي يحب فيها كل والدٍ أن يداعب ولده، ويحمله بين يديه، وينظر قوْمته وقعدته، ويستلذ بحروفه وكلماته. وليتهم كلهم قد ظلوا على حالهم من تفضيل الآجل على العاجل، وطبقوا ذلك في كل شؤون حياتهم. فقد علموا أن سلامة الجسد طريقٌ لسلامة الروح وإنجاز جلائل الأعمال مستقبلاً، فالجسدُ وسيلةُ الحياة، والعقلُ محرِّكُها، واللسانُ ممثلُها، ولا بد من العناية بالوسائل وصقل الأدوات للتوصل إلى تمام الغايات، ولهذا الإيمان منهم فقد عملوا وفق ذلك العلم وبحثوا عما يحقق لهم رعاية الوسائل فأدركوا أن جو المدن. أو ما يمكن أن يوصَف بذلك في بيئتهم. لا ينشئ أطفالاً مستقيمين تماماً جسماً وعقلاً ونفساً، أما البادية فهواؤها أنقى، وفسحتها أوسع، وفيها يكتسب الطفل استقامة البدن، وصحة النفس، وسلامة الأعصاب، وصفاء الأذهان، وفوق ذلك كله

(7) انظر خبر حليمة في سيرة ابن هشام ج1، ص162 إلى ص164.

فصاحة اللسان الذي لم تؤثر فيه رفاهية الحضارة، ولم تفسد سليقتَه نبراتُ القادمين والرائحين من أطراف الجزيرة وإليها، ومع هذا كله اعتدال الأخلاق، وصفاء القلوب، وقيامها بسلامة بعيداً عن فساد المدن وما تغيره من طبائع الإنسان، وما تنحرف به من فطرته.

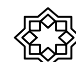
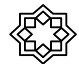
في رحاب تلك البادية، وتحت أشعة تلك الشمس القوية، وفي رياض ذاك الهواء النقي، ومن حليب تلك الأم الرؤوم نشأ ذلك الرضيع المبارك ومرضعته تجد في قربه خيراً ويُمناً، وتلمس في قلبها له حباً ووداً.

ويزداد شغفها به يوماً فيوماً إلى أن تفطمه فيحين موعدُ عودته إلى أمه التي تنتظر رؤياه، وتحتاج إلى قربه بأكثر مما تحتاجه هذه المرضعة الحنون، فأخذت الصغيرَ في يدها، ويدُها الأخرى على قلبها لوعةً على فراقه، وطيفُ أملٍ يتراءى أمامها على مد البصر في أفق الصحراء التي تقطعها لتعيد الأمانة إلى أهلها، يضيء طيفُ الأمل هذا طريقَها، ويخفف حزنها، ويمنيها بسنوات أخرى تقضيها إلى جانب هذا الطفل الذي أحبته حبًّا جمًّا، وعاشت هي وأولادها في بركةٍ حلت عليهم بحلوله ديارها.

ووصل ركبُها الصغير إلى أم اليتيم المبارك، فاستعطفت الأمُّ المرضعُ الأمَّ الوالهةَ أن تتركه عندها زمناً أطول إلى أن يشتد عوده، ويقوى جسمه، ويفصح لسانه أكثر وأكثر.

ومرة أخرى تؤثِرُ الأم الحنون ما فيه صلاحُ ولدها على ما فيه رضا قلبِها المشتاق، فتأذن لأمه الثانية أن تصطحبه معها من جديد، وتبدأ رحلة أخرى نحو البادية، ويقوى الصبي حتى يصل الخامسة من عمره فيعود إلى أمه التي تنتظره في

أرض مولده، ومهدِ آبائه[8]، وهو لا يعلم ما الذي ينتظره بعد زمنٍ وجيزٍ من عودته إليها، ثم بعد عامين آخرين، ولكنها منحةٌ ربانيةٌ في طياتِ محنةٍ.. يوضحها لنا عنوان المبحث التالي: (الطفل اللطيم).

(8) أعادته حليمة في المرة الثانية بعد حادثة شق الصدر التي استخرج فيها الملك قلب المصطفى ﷺ، وغسله في إناء ذهب بماء زمزم. انظر خبر إعادة حليمة للرسول ﷺ في المرتين في سيرة ابن هشام ج1، ص162 إلى ص166.

المبحث الثالث: الطفل اللطيم[9]

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ ﴾ الضحى: ٦

وينعم اليتيم بنعمة الله في ظلال والدته التي منحته حياتها ومحبتها، ولزمته إلى أن بلغ السادسة، فعزمت على أن تقوي أواصر علاقاته بأقربائه، فأخذته إلى أخوال أبيه من بني عدي بن النجار في المدينة، حيث قبر والده عبد الله فزاره مع أمه وحاضنته أم أيمن مولاة أبيه، وفي طريق عودتهم إلى مكة أصاب آمنةَ المرضُ فتوفيت، ودُفنت بالأبواء بين مكة والمدينة[10]، فحضنت الغلامَ الحبيبَ اللطيمَ أمُّ أيمن.

وتغشى سحابةُ حزنٍ قلبَه الغض وهو يودع أمه، وتغلّفه وحشة الفرقة ويكمل الطريقَ عائداً إلى مكة مع حاضنته أم أيمن مولاة أبيه وقد نقص ركبهم واحداً هو أعزّهم وأقربهم إلى قلبه. لكن نعمة الله تظل محلقة في سمائه فتقشع سحابةَ حزنه إذ يضمه إليه جده الرحيم، ويهبه من كأس حنانه ورعايته، ويغذيه من أصناف المحبة ما أنساه آلام يتمه، فتشرق شمسُ المحبة من جديد في حياته، فيشعرُ فيها بالأمن، ويتمددُ في ظلالها سنتين من الزمن، يتقلبُ في أردان المحبة ويلبسُ حللَ الإكبار من الجد العطوف الذي لا يفتر يردد كل حين: إن لولدي هذا شأناً[11].

وبلغ من عظيم حبه له، وكريم تقديره لحفيده أن كان يؤثره على أبنائه، وقد كان له فراشُ في ظل الكعبة لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، فإن أتى

(9) اللطيم من مات أبواه. جاء في لسان العرب ج12 ص543 (اللطيم: الذي يموت أبواه. والعَجِيّ: الذي تموت أمه. واليتيم: الذي يموت أبوه.)

(10) خبر وفاة أم الرسول ﷺ أورده ابن هشام 168/1.

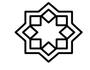
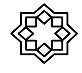
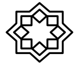
(11) انظر: إكرام عبدالمطلب له ﷺ وهو صغير في سيرة ابن هشام ج1، ص168.

الصغير وجلس على فراش جده قام أعمامه يبعدونه عنه، فهم أنفسهم لا يجرؤون على الجلوس عليه، بل يحيطون به انتظاراً لقدوم والدهم، لكن أباهم حين يعلم لا يرضى بفعلهم فيقول لهم: دعوا ابني هذا. ويردد عبارته الشهيرة: فوالله إن له لشأناً.

وانقضت السنتان، ومعها ارتحل الجد إلى بارئه، وتضاعف يتم الصغير، فلئن كان يتمه الأول قدَراً لم يشعر منه بشدة فَقدٍ أو نقصِ عاطفة ذاقها، فإن الوالدة والجد فُقِدا وهو يدرك، ويستشعر عظيم ودهما له وحدبهما عليه وبالغ إحسانهما إليه، فيمد أسباب المحبة من قلبه إلى قلوبهما، فتتكسر على جدار الموت، ويفقد أجنحة الرعاية من جديد.

لكن نعمة الله لا تتخلى عنه أبداً، بل يتمها الله عليه أحسن إتمام، فيؤويه إلى عمه الشفيق أبي طالب ذي العيال الكثيرة، واليد الضيقة، فإن للصغير هالةً من النور تستقطب له القلوب بإذن الله، فيضمه عمه إليه، ويجعله واحداً من أبنائه، بل أعزهم، وتبسط زوجُه الكريمة[12] رداء رعايتها الحاني فوقه فيعاوده شعور الأمان من جديد.

وينشأ الطفل اللطيم في عناية عمه الذي يسبغ عليه عطفه وحبه إلى أن يبلغ مرحلة الشباب، فتتطلع نفسه إلى ما يناسب سنّه وفاءً لعمه، وليس متعة لنفسه، بل عفةً كريمة، وتخفيفاً عن العم الكريم على ضيق ذات يده، وهذا ما سنعرفه في المبحث الجديد: (الشاب العفيف)، مع مرحلة جديدة من عمر المصطفى قبل بعثته صلوات الله وسلامه عليه.

(12) هي فاطمة بنت أسد رضي الله عنها، والدة الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

المبحث الرابع: الشاب العفيف

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ القلم: ٤

ينشأ الطفل اليتيم في كفالة عمه العائل[13]، فيكون عفيفَ النفس، حافظاً جميلَ عمه، لا يثقل عليه، ولا يزاحم أولادَه رزقهم، وكانوا إذا جلسوا إلى مائدة الطعام تَخَطّفه أبناء العم، وأمسك اليتيمُ أو أكل بهدوءٍ مما يليه رضىً وقناعة.

وامتد شعوره بالامتنان لعمه طَوال حياته معه، فما كاد يشب عن الطوق حتى عزم على مساعدة عمه بالعمل للإنفاق على نفسه، والتخفيف عن العم مؤونة الإنفاق عليه بعد أن صار في أول الشباب وتجاوز مرحلة الطفولة، فعمل في رعي الغنم، يخرج بها إلى مراعيها، يسوقها، ويدلها مواضع الكلأ، يسوسها برفقٍ مرةً، وبحزمٍ مرةً حذراً وعنايةً وإيثاراً لصالحها.

عمل الفتى الصغير ابنُ البيت الكبير شرفاً ونسباً في رعي الغنم، لم يستنكف عن ذاك العمل، لم يرفضه، لم يتعالَ عليه، لم يترفع عن عملٍ شريفٍ يكسب منه قوتَ يومه، ويستقل بنفسه، ولا يكون عبئاً على غيره، فآثره على القعود في المنزل وغيرُه ينفق عليه وهو في صحته وبكور شبابه. لم يخجل من أحد، ولم يخَفْ على سمعة أسرته العريقة من هذا العمل الذي قد يبدو في أعين بعض الناس وضيعاً، بل افتخر به وكان يقول بعد أن تُوّج بالنبوة والاصطفاء: (ما بعث

(13) تطلق كلمة العائل على الكثير العيال، أو على الفقير، قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝ ﴾ الضحى 6 – 8.

الله نبياً إلا رعى الغنم) فلما سأل أصحابه: وأنت؟ قال: (نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة).[14]

عليك السلام يا رسول الله، رضيت بالعملِ الشريف، والأجرِ القليل لتعيش حرّاً عفيفاً، لا يتفضل عليك أحد، ولا تأخذ من أحد شيئاً وإن قل.

ونشأ في عفته بعيداً عن كل ما حولَه من لعبٍ ولهوٍ ومجونٍ، لم يقرب شيئاً مما يقربونه من السمر واللهو والمعازف، لم يشرب خمراً، ولم يعبد وثناً، لم يلقَ جاريةً أو يُطلق بَصَراً أو يحضر لهواً، (فكان أفضلَ قومه مروءةً، وأحسنَهم خلقاً، وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانةً، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزهاً وتكرماً حتى ما أسموه في قومه إلا الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة)[15]

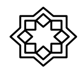
كانت روحُه تحلقُ في علياء السماء، تأنف سفاسف الدنيا وصغائرها، وإن فكرت نفسه مرة أو اثنتين في حضور بعض تلك المجالس في حفل أقيم لعرس أحد شباب مكة فأقبل يقصده يدفعه حب الاستطلاع ومعرفة ما يجذب الناس إلى هذه الملاهي، فإن الله قد أسدل عليه ستارَ النوم فلم يرَ شيئاً مما يفعلون ولم يشاركهم إياه إلى أن لسعته أشعةُ شمس اليوم التالي[16] تعلن بدء يوم عملٍ جديدٍ، ينعم فيه بحفظ الله.

(14) رواه أبو هريرة. صحيح البخاري. كتاب الإجارة. باب رعي الغنم على قراريط، حديث رقم 2306.

(15) السيرة النبوية لابن هشام ج1، ص183.

(16) انظر القصة في البداية والنهاية 370/2.

وبقي على عفته وترفعه عن تلك الصغائر التي يشغل بها الفارغون أنفسَهم، وبقي على عفته في أنفةِ إنفاقِ أحدٍ عليه ما دام قادراً إلى أن لاح في الأفق ضياءٌ جديدٌ لعملٍ جديدٍ ومستقبلٍ واعدٍ مع مرحلةٍ جديدةٍ من عمر المصطفى ﷺ وهي (التاجر الشريف).

المبحث الخامس: التاجر الشريف

﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ الطور: ٤٨

كانت الشريفة الطاهرة خديجة القرشية زهرة سيدات بني أسد امرأةً ذات مالٍ وتجارةٍ، يعمل الرجال في أموالها، فيذهبون في رحلاتها التجارية يبيعون ويشترون، ويأتون لها بالأرباح فتعطيهم ما يستحقون لقاء عملهم وجهدهم في أموالها.

سمعت هذه السيدة الفاضلة عن الفتى العفيف محمد الأمين، فرغبت في أن يعمل معها في تجارتها، وهذا مطمحُ كلّ تاجرٍ أن يعملَ مع ذوي الصدق والأمانة، فعرض وكلاؤها عليه الأمر مع وعدٍ بأجرٍ أكبر مما يأخذه مَن سبق لهم العمل معها، فوافق، وخرج في قافلتها قاصداً الشام، وهذا من فضلها ونباهتها في تكريم أهل الأمانة، وإعفافهم، وإغنائهم عن أي حاجةٍ تلمّ بهم، فإما أن تحرفهم الحاجةُ عن نهجهم القويم، وإما أن تشق عليهم وتوقعَهم في الحرج.

ارتفعت الشمس في كبد السماء، وَصَلت بنيرانها كلّ ما على ثرى أرض الجزيرة، وضاعفت أشعتها على طريق القوافل الذاهبة في طريقها نحو الشام.

تطلع (ميسرة) خادمُ خديجة إلى التاجر الجديد، وملَكَ الانبهارُ نفسَه، فأوقفه عن المسير لحظاتٍ محدّقاً فيه، مصعّداً نظرَه إلى السماء.

لم تتوقف عيناه عن حصارهما له في حركاته وسكناته، رافقه في الشام ورأى معاملته فزاد إكباره له لما يرى من صدقه وحسن أمانته ولمحات ذكائه، وعجب

أكثر من تدفق الأموال بين يديه، لم يوقفها صدقه، ولم تنقصها أمانته.

وفي طريق العودة كاد أن يلتصق به، فمنحه الحبيب ﷺ ابتسامةً أزالت كل رهبةٍ من نفسه واندمجا في الحديث لا تمنع بينهما حواجزُ نسبٍ، ولا سدود جاهٍ ولا منصبٍ ولا مقامٍ.

وأحسّ التاجر الجديد بعلامات إعياءٍ على صاحبه لا سيما في الظهيرة عند اشتداد حرارة الشمس، وتساءل عن ذلك، فابتسم الصاحب المرهق رافعاً أصبعه لأعلى: (يحق لك أن تتساءل عما بنا، فأنت مُظلّلٌ بهذه الغمامة التي تعلوك أينما ذهبت، لا تظل أحداً غيرك)[17].

ونادى أحد قادة الرحلة الفتى (ميسرة) فانطلق يلبي نداءه، ومضت القافلة في رحلتها.

(كان مثالاً للشرف، ودرةً في الأمانة، وجوهرةً في الرفق وتاجُ الصدق يزينه، وغمامةُ السحاب دون الناس تظلله) بهذه الكلمات نطق ميسرة في حضرة سيدته يخاطبها بأدبٍ جمّ من بعيد إذ سألته عن التاجر الجديد، فانطلق لسانه بكلماتٍ لم يكن يظن قدرته عليها.

فانتقل الانبهار ليملأ قلبَها، وانطلقت سهامُ الإعجاب من لسانِ ميسرة تحملُها كلماتُه لتغرسَها في صدر العفيفة الطاهرة التي طالما داعَبَ خيالَها طيفُ صدقٍ في هذا الزمن الكئيب، وتخلل أحلامَها خيالُ تاجرٍ أمينٍ، سلاحه الرفقُ

(17) روى ابن كثير عن ابن إسحاق أن ميسرة رأى ملكين يظلانه ﷺ من الشمس، انظر البداية والنهاية 377/2.

والصدق بعد أن جرّبت كثيرين لم تجنِ منهم إلا تلاعباً في أموالها، كانت تلحظه وتلحظ تحايلهم عليها واستغفالهم لها، هكذا ظنوا، لكنها كانت تتقبلُ الأمرَ وهي تعرف حقيقته، وتسكت وهي تعلم ما يفعلونه، وترضى بما يحملونه لها من مالٍ قليلٍ من أرباحها متّبعةً في ذلك منهجَ الكريم يغضي عن الزلات، ولا يناقش الجاهلين. فلم يكن الربحُ قصدَها ولا هدفاً لها، لكن القيمَ الرفيعةَ مثالٌ تحلمُ به، وقمةٌ لم ينجح في صعودها إلى الآن أحدٌ ممن عرفت، فما يفيدها أن تحاسبهم؟

وها هي كلماتُ ميسرة تنبئها أن حلمَها بين يديها، وأن تلك القيم لم تمحَ من العالم بعد، بل ما زال شعاع نورِها يطل عليه، وها هو يتسلل إلى قلبها فيملؤه فرحةً وسعادةً.

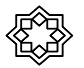
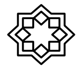
أكثرت الطاهرةُ خديجة من الحديث عن حلمها الذي طال ترقبُها له لصديقتها (نفيسة) التي كانت صديقة صدوقة، تحادثها وتسر لها دوماً بخبيئة نفسها. ولم تخلُ لهجة حديثها عنه من معالم الإعجاب التي تملأ نفسها، فقالت الصَّديقة الوفية: ما أصلحه لك زوجاً!

وتسلل الحلم الجديد من لسان (نفيسة) إلى قلب (خديجة)، لم يجد صدى فحسب، بل تغلغل وأخذ مكانه، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟

قرأت نفيسة ذلك من ملامح صديقتها، وحدّثتها به روحُها التي تألفها وتفهمها من طول عشرتهما، فقالت بعزمٍ ومودةٍ: دعي الأمر لي.

وسعَت في إتمام الزواج، لا تُنقص من قدْر خديجة ولا من قدْر الشاب

العفيف، فحثته على إحصانِ نفسه، كما أعلمته بمكانة خديجة في قومها، وأمنية أكابر قريش في الاقتران بها، وميلها عنهم لأن أحدَهم لم يكن في خُلقه وسَمته كفئاً لها، وحثّته على خِطبتها[18]. ورغب التاجرُ الشريف أن يعفَّ نفسَه، ويقترنَ بخير سيدات العصر، فحدّث أعمامه، فوافقوا، وسعوا في الأمر، وتم الزواج المبارك الميمون.

(18) يروي ابن هشام بتشكيك عرض خديجة نفسها على الرسول ﷺ: "فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به بعثت إلى رسول الله ﷺ فقالت له – **فيما يزعمون** – يا ابن عم. إني قد رغبت فيك لقرابتك، وسطتك في قومك وأمانتك وحسن خلقك، وصدق حديثك، ثم عرضت عليه نفسها" أما ابن حجر في الإصابة فيروي سعي نفيسة في ذلك، طالع الترجمة رقم (11086) ورقم (11816) في كتابه.

المبحث السادس: العاقل الحكيم

هذا الأمينُ رضيناه، هذا محمد

عاش محمدٌ ﷺ (ابنُ الخامسة والعشرين) مع خديجة ذات الأربعين عاماً حياةً طيبةً، يزينها التوافق، ويلحم ثغراتِ الحياة انسجامُهما وحسنُ تآلفهما، وطهارة نفوسهما. وازداد إعجابُها به، وفرحُها بما نالت من حظّ عظيمٍ بهذا الزوج الكريم العاقل الحكيم.

وبقي يعمل في تجارتها، لا يأنف أن يكون عاملاً في مال امرأته، فهو ذو جهدٍ وخبرةٍ وحسنِ تصرّفٍ، ومالُ زوجه يحتاج إلى تلك الصفات، فمن سواه الأحق بالعمل فيه والحفاظ عليه؟ وهي ليست ممن يجعل المال سداً بينها وبين زوجها، فمالهُما واحد، ينتفعان به ويعملان فيه، هي صاحبته، وهو صاحبه، وهو مَن يسعى فيه ويثمره وينميه.

وأتم الله عليهما النعمة، فرزق البيت الطاهر بأقمار تزين سماءه، هي ثمرة هذا الزواج من الذرية الطيبة التي كانت نوراً للبيت المحمدي مدة من الزمن.

وظل (محمد) ﷺ ذا مكانةٍ في قومه، يعززها كل يوم ما يرون من حسن خلقه، ولين جانبه، ولطف معشره، وصدق حديثه، وأمانة يده، وكمال عقله.

وفي إحدى السنوات اجتاح مكةَ سيلٌ انحدر إلى الكعبة فكادت تنهار من وطأته، فعزمت قريش على تجديد بنائها إجلالاً لمكانتها بين العرب، فجمعوا الأموال التي هي حلالٌ خالصٌ لا تشوبه شائبةُ حرامٍ كمالِ يتيمٍ أو مهرِ بغيّ أو

بيعِ ربا أو مال فيه مظلمةُ أحدٍ من الناس[19]، وقسموا البناء أجزاء، ووزعوه على القبائل ليكون لكل منها شرفُ المشاركة في بناء البيت العتيق. ولما بلغوا موضع الحجر الأسود اختلفوا مَنْ منهم ينال شرفَ رفعه ووضعه في مكانه؟ وبقوا في خلافهم أياماً وليالِيَ طويلة، والحجرُ أمامَهم لم يوضع في مكانه بعد، وخافوا من تأخرٍ أكبر ومن حربٍ تقوم بينهم . وهم الذين تنشب حروبهم على ما هو أتفه من هذا .، واقترح أبو أمية بن المغيرة المخزومي . وكان عامئذٍ أسنَّ قريش [20]. أن يحكّموا في أمرَهم أولَ من يدخل عليهم في جلستهم، فرضوا، وكان محمد ﷺ، فتنادوا فرحين راضين بمن وثقوا بعقله: هذا الأمينُ رضيناه.

صار عليه الآن أن يكون حَكَماً بين قبائل العرب، وأن يكون حكمه مانعاً لها من الاختلاف بل والحرب المتوقعة، وأن يكون في الوقت ذاته غيرَ منقصٍ قدْر أحدٍ منهم ولا ظالماً قبيلةً أو رئيساً.

وكان الحل أن يتشاركوا في حمله، فبسط ﷺ رداءه، ووضع الحجر وسطه، وطلب من رؤساء القبائل المتنازعة أن يأخذوا بأطراف الرداء إلى قرب موضعه. وهناك كان لا بد أن يضعه واحدٌ فحسب، فرفعه الأمينُ بيديه الشريفتين ووضعه في مكانه[21]، فرضي القومُ بذلك، وانتصرت الحكمة المحمدية، فأصلحت ذات البين، وأزالت خلاف النفوس، وأطفأت شرارة حربٍ تضطرم في القلوب، وعاد الشيطان مهزوماً أمام العقل والحكمة المؤيديْن من رب الأرض والسماء.

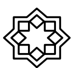
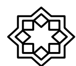
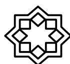
---

(19) السيرة النبوية لابن هشام: ج1، ص194.

(20) السابق 197/1.

(21) انظر قصة هدم الكعبة وبنائها وتحكيم الرسول ﷺ فيها في السيرة النبوية لابن هشام 197/1.

أما المصطفى ﷺ فقد دفعه هذا العقل الراجح إلى تنمية الفكر وإمعان التأمل في الكون، فكان (التفكر) أبرز سمات مرحلة ما قبل البعثة المشرفة.

المبحث السابع: المتفكر المتأمل

﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ آل عمران: ١٩١

ولم ينسجم العاقلُ الحكيم مع ما يحيط به في بيئته، فآثر الخلوة بنفسه يبتعد عما لا يرضيه، فيخفّ عنه عناءُ ما يلقاه من الأذى النفسي وهو يشاهد ما يفعلون، أو يسمع ما يقولون، مما تعافه نفسُه، وتسمو فوقَه روحُه.

واختار غاراً في الجبل صغيراً، فكان يقضي فيه من وقته كثيراً، يذهب وحدَه ويجلس متفكراً، يتأمل فيما حوله، يمد بصره إلى آفاق السماء فتبهره الروعة، ويجيل طرفه في أرجاء الأرض وما فيها وما عليها فيتمادى عقله في الذهاب إلى ما وراءها من حكمةٍ وصنعٍ بديعٍ وقدرةٍ فائقةٍ، ويعود ليتأملَ في أحوال البشر فيؤلمه وضعُهم، ويؤمن أنهم في ضلال، ويتفكر في طريقةٍ للرقي بهم، واستنقاذهم من براثن ما يُلقون بأنفسهم إليه، واستخلاصهم من هوانِ الدنيا وعبثِهم في فراغها، وانطلاقِهم كالدواب التي ترعى إلى جانبهم.

كان الغار مرتفعاً عن الأرض واقعاً في قمة جبل فهو يترفع عن ضلال القوم لكنه في الوقت نفسه لم يبتعد عنهم كثيراً، كما أنه يشرف على مكة ويتأمل أحوالها في دائرة أوسع مما تتيحه له إقامته المباشرة بينهم، ثم هو بارتفاعه قريب إلى السماء يعلن اتصاله بها وتطلعَه لقبس النور المرتجى منها.

أضحت تلك الخلوة أحبَّ إلى نفسه من كل ما سواها، ففيها يتحرر من هموم الدنيا، واهتمامات النفس، ويطلق العنان لفكره ليحلق في أطراف الكون، ويمنح قلبه هديةَ الصفاء والهدوء، فيجلو كل ذلك بصيرته، ويزيده شفافيةً ونقاءً

وكمالاً.

إن تلك الخَلوة بما تحمله من تأملٍ وتفكّرٍ ذاتُ أثرٍ كبيرٍ في بناء الشخصية المحمدية، وربطها بآفاق السماء والأرض فكرياً وروحياً، وفي سمو القلب عما حولَه من ضلالات، وفي الإعداد النفسي لحدَثٍ مستقبليٍّ كبيرٍ يرنو للإصلاح والارتقاء، وفي الإيمان بضرورة التغيير في هذه المرحلة التي تكاثفت فيها أستارُ الظلمات فاحتوت الدنيا وحجبتها عن التماس شعاع ضوءٍ من العقل والفطرة أو قبس نورٍ من هدي الأنبياء والمرسلين الذين تصل أخبارهم إلى أرض الجزيرة، وتمسك بها بعضٌ ممن سموا بالحنفاء موحدين للرب نابذين للأصنام مترفعين عما يرون من جهل وسخف وضلال وانحطاط.

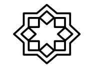
إنها الخلوة مع إدامة التأمل وإرادة الفكر فهي نتائج طيبة، وثمار شهية، تتضح في الهدوء النفسي والصفاء الروحي، وكان من نتائج ذاك الصفاء أنه ﷺ كان إذا رأى رؤيا جاءت كفلق الصبح[22]، وهذا من علامات النبوة، وهو أول درجات الوحي التي يُبتدأ بها الرسول ﷺ لكيلا يكون الاستقبال المباشر مفاجأة لا يقوى على مواجهتها. وهكذا.. دبر الله لنبيه ﷺ كلَّ ما يؤهله لحمل أمانة البشرية، وتصحيح مسار الأرض، وتعديل خط التاريخ.

---

(22) روت عائشة أم المؤمنين: "أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء..." وفيه تفصيل أكثر عن التعبد في غار حراء، وهو حديث في صحيح البخاري .كتاب بدء الوحي . باب بدء الوحي، حديث رقم 3، وانظر ابن هشام ج1، ص234.

وهكذا أضحى الكون مهيأً لنزول النور (القرآن الكريم) مبشراً برسالة الإسلام الخاتمة على يدي أكمل الخلق ﷺ ، ورحلة النزول المباركة، مع رحلة تبليغ الرسالة الخاتمة لب موضوع البحث في الفصل الثاني (نزول النور).

وقبل التواصل مع رحلة النزول نتوقف مع شعاعِ نورٍ.. من السراج المنير.. في فصل (ولادة النور: محمد بن عبدالله ﷺ).

نورٌ.. من السراج

الابتلاءات : نِعمٌ وحكمٌ

إن المتأمل في حياة النبي ﷺ في صغره ليعجب من بعض ما نشأ فيه من حرمان، ولكن لله تدبيراً حكيماً في كل أمر، وما كانت تلك النشأة ولا ذاك الحرمانُ إلا حِكماً ربانيةً تهيئ هذا الفتى الصغير لحمل أمانة السماء، وتولي قيادة الدنيا. وهكذا أمرُ الله وحكمتُه، وكمالُ تدبيره في كل ما في حياتنا مما نراه مِحناً ونعيشه ألَماً، فعلينا أن نستخرج لأنفسنا منه مِنحاً، ونعيش به أملاً.

** لقد ولد يتيماً، فلم ير أباه قط، ثم فَقد أمه ولما ينعم بحنانها بعد إذ كان عند مرضعته في البادية عدداً من السنوات أبعدته عن والدته، ثم ما كاد يطمئن في كنف جده سنتين حتى فقد الجد أيضاً، إنها مراحل متلاحقة من اليتم في سن صغيرةٍ تُعد الرعاية الأسرية المتوازنة أساساً عظيماً لحسن تنشئة الصغار في ظلالها، ولكنه عاش فترةً غيرً مستقرة ينتقل من مكانٍ إلى مكانٍ، ومن يدٍ إلى يدٍ، إلا أن ذلك كان بأمر الله وتدبيره ليتولى ربُّه تربيته، ويهيئ له كل ما يؤهله لتلقي الدعوة، وحملِ أعظم رسالة عرفها تاريخ البشرية، ولحسنِ الاضطلاع بواجباتها، فرباه الله تعالى على عينه، وأدبه فأحسن تأديبه.

ثم إن هذه التربية تعلم الصغير تمامَ الاعتماد على نفسه، وتجنبه التواكل على والديه في تهيئة ما يحتاج إليه، فلا ينشأ مرفّهاً مدللاً، يأمر فيطاع، ويتمنى فيجد، لا يتعب ولا يجهد في تحقيق شيء يريده، فتلك التربية لا تخرج عنصراً

صالحاً قادراً على تسلّم زمام الأمور، إن هذا اليتيم نشأ قويَ النفس، متحرراً من الاعتماد على غير الله، يكفي نفسَه أمر نفسه، ولا يكلف أحداً شيئاً يخصه، ويجتهد ويعرق وينصب ليحقق ما يريد، ويتعود اختلاف الأحوال والأقاليم وتباين الظروف، فيتكيف مع كل منها بما يناسبها كما فعل عندما تنقّل من بيت والدته إلى جده إلى عمه إلى بلاد مختلفة للتجارة. ولهذا كله من الإعداد الرباني لنفسيته وجسمه ثمراتٌ جناها فيما بعد حين أوحي إليه وبدأ عمله الأكبر. ويحق السؤال: كيف ليتيمٍ أن يتبرم بما اختاره الله له؟ وكيف لا يرجو أن يحظى بالتربية الإيمانية المباشرة والرعاية الإلهية الحكيمة؟ وكيف لا يرضى أن يكون كالحبيب اليتيم ما دام الله قد أراده مثله؟ وهل يفهم حقيقةَ المكانة التي هو فيها كما نظر الشاعرُ إلى المحنة النبوية من زاوية التفرد وعلو المكانة:

ذُكرت باليتم في القرآن تكرمة ** وقيمة اللؤلؤ المكنون في اليتم [23]

** وكان هذا الفتى فقيراً، لم يكن من أسرةٍ غنيةٍ بالمال، لكنه من أسرةٍ شريفةِ النسب، عاليةِ القدر بين قومها، ومع ذلك اجتهد ليكسبَ قوت يومه بجهده وكده، فخبر الدنيا، وعرف مشقاتها، وتأكد أنها دار تعبٍ وعناءٍ، وتعوّد السعي على أموره بنفسه من أجل رزقه دون تأففٍ أو تبرمٍ. وهو بفقره وبيتمه مثلٌ للفقراء ولليتامى، وعزّ لهم وفخرٌ، فلا عليهم إن قيل عنهم شيءٌ لا يرضونه، أو أهملهم مجتمعهم فإنّ لهم في رسول الله ﷺ الأسوة، كان يتيماً فقيراً، لكنه لم يجلس معدوم الحيلة أمام المصيبة، ولم يترك أمره للناس يسيرونه كيف شاؤوا، ولم يعث

(23) الأعمال الشعرية الكاملة . أحمد شوقي . 200/1 . والبيت من وزن البسيط.

فساداً أو ينحرف عن الجادة، ولم يبحث في دنياه عما لا يحل له، ولم ينل لقمته باعتداءٍ على أحد، ولم يسخط على هذه الدنيا، ولم يتكالب على ما فيها عندما فتحت له خزائنها فيما بعد لينفس عن سنوات الفقر؛ لأنه كان قد استقبلها بنفسٍ راضيةٍ مطمئنةٍ، ولم تغرِهِ مباهجُ الدنيا وملذاتها بالركون إليها.

وإن هذه الحالة من اليتم والفقر قد جعلته يشعر بأوضاع الناس، ويقدر أحاسيسهم ويفهم نفسياتهم، فيعالج شؤونهم فيما بعد بحكمةٍ وخبرةٍ، ونفسٍ عارفةٍ بمواضع الداء، فلقد شعر مثلَهم بالحرمان وعاش حياة البؤس، وذاق آلام اليتم، وعذاب فقد الأحباب، وهذا كله جعله يملك الحسَّ الخبيرَ في التفاهم مع أفراد المجتمع، وفي وضع الحلول الناجعة لهم مسترشداً في ذلك كله بهَدْي الله. وهو بما أحسه منهما يقدِّر مرارتهما، وصعوبة الحياة معهما، وتنصهر نفسه في بوتقة الحزن الذي جلله سنواته تلك، فيكون مرهفَ الحس، شفاف النفس، يشعر بآلام غيره، ويتفهم أي مصيبةٍ تحل بمن حوله، أو وضعٍ يقاسيه مَن أمامه، وقد كان من شرعة الله التي جاء بها إكرامُ اليتيم، وإعفافُ الفقير، وكان كافلُ اليتيم مع رسول الله ﷺ في الجنة تكريماً من الله لفضله وتكفله بعباد الله.

ولا يفوت المرء أن يلمحَ نكتةً لطيفةً في كون الأسرة الشريفة التي نبت فيها المصطفى ذات عراقة وقدر دون أن تكون ذات مالٍ، وذلك يثبت منزلتها ويؤكد أن الرفعة والشرف ليسا بالمال بل إن أموراً أخرى هي المقياس في ذلك، لأن جلائل الأعمال أعلى من كنوز الأموال.

** ورعي الغنم: قد يراه بعضٌ ابتلاءً، ولكنه أيضاً نعمةٌ من نعم الإعداد

الرباني للرسول ﷺ، فإن في تربية الغنم والعناية بها تربيةً للنفس على عدد من الطبائع والأخلاق؛ فمنها الصبر على الرعية وحسن سياستها، والتفطن لمواطن صلاحها، والصبر على صعوبات هذا العمل الشاق الذي يلتهم من وقت الراعي أكثره، ومنها التواضع فلا يستكبر على عملٍ صغيرٍ لو لم يقم به أحدٌ لاحتاج إليه الناس كلهم، فالقائم عليه يؤدي خدمة جليلة للمجتمع لا يشعر بها عامة أفراده.

والرعي يعلم المرء الشجاعة للذود عن رعيته الضعيفة، ويعلمه الحزم في اتخاذ القرار وتعرّف منافذ النجاة، ويمنحه حسًّا مرهفاً، وتوقعاً لمكامن الخطر، كما يعلمه الأخذ بأسباب الاحتياط ليأمن على أمانته، ويغرس في قلبه الشعور بالعطف والإحساس بالرحمة نحو هذه الماشية الضعيفة التي ليس لها من أمرها شيء، وتحتاج إلى راعيها في كل شيء.

وهذا العمل يدرب الإنسان على توقع الأخطار، وعلى معايشة كل الظروف والأوضاع، فشظف العيش هو حال أغلب رعاة الأغنام، وهذا يعلمهم قيمة العمل، ويعودهم أقسى ظروف الحياة، فلا يفاجَؤون إن تعرضوا يوماً لمثلها رغماً عنهم. وهم بعيدون عن حياة الترف واللهو التي تُفسد النفوس، وتُضعف الأبدان، وتعلم التواكل والاعتماد على الآخرين في أدنى شؤون الحياة.

والاعتماد على النفس في تحصيل الرزق والاستقلال عن الآخرين أمر عظيم الأهمية قد لا يشعر به بعض الناس، ويكفي أنه يمنح الإنسان الحرية ويجعل المرء منطلق اللسان غير خائف ممن بيده رزقه أو عليه القيامُ بعمله، فلا يسكت أمام الجور لأن رزقه بيد هذا الحاكم أو غذاءه بيد تلك الدولة، أو صناعته رهنٌ بأوضاع الثانية، أو ماله مرتبطٌ بمال أخرى، وفي هذا تخلص من التبعية التي تسيم

الإنسان الذل، وتستنزله عن بعض مبادئه وعن كل حقوقه الأخرى.

ثم إن ذاك المجال الفسيح، والفضاء الرحب يتيح لهذا الفتى الشاب المحب للفكرة أن يسرح عقله في رحاب الكون كما تسرح أغنامُه في رحاب المراعي، ويعطيه ذاك الانطلاق في الأرض الواسعة أن يكون أوفر خيالاً، وأقوى تفكيراً، وأفسح صدراً، وأطول تأملاً، وأنفذ بصيرةً.

وكلّ تلك الابتلاءات ذاتُ حكمةٍ أعمق إذ تلغي أي مجال للشبهات، وترد على المغرضين الذين يدعون أن الرسول ﷺ إنما قام بدعوته من تلقاء نفسه بتحريض من أهله وقومه، أو ليحفظ ملكهم وجاههم، أو أن ما دفعه لذلك دوافع قبلية وعصبية جاهلية، فنشأ بعيداً عن خاصة أهله، بعيداً عن قومه منذ رضاعه، قليلَ ذات اليد ليس ذا مالٍ أو ملك.

وكل هذا التدبير بحكمةٍ من الله، وكل هذه الابتلاءات تربيةٌ ربانيةٌ، وفي طيات كل منها منحٌ إلهية، تمهد للطريق الطويل، وتؤهل النفسيةَ المحمدية لحمل الأمانة العظمى وتبليغها، فسبحان من يدبر أمورَ عباده وفق العلم والشامل والحكمة المطلقة.

الفصل الثانـي

تنـزل النّور

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾

تنـزل النـّور

المبحث الأول: النبي الرسول

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ ﴾ العلق: ١

أحبّ الخلوة، وأدام الفكرة، واعتزل الضجة، وفي حراء وجد الأمن، وحظي بالوقت، وأعمل الفكر. وعلى جبل النور شعت أنوار القرآن، وبرق ضياء الإسلام، وفي حضن جبريل تدفق نور الوحي إلى قلب المصطفى ﷺ، ومنه شعّ على الكون كله.

أتاه جبريل عليه السلام في خلوته في الغار وقد اتصل قلبُه بربه، وهام عقلُه في رحاب ملكه، وبديع صنعه. أتاه حاملاً أولَ شعاع نور، أتاه قارئاً كلمة بدء النور (اقرأ) فقال ﷺ: ماذا أقرأ؟ [1]

فاحتضنه بشدة حتى أخذ منه الجهد وأطلقه قائلاً: (اقرأ). فقال: ماذا أقرأ؟ فأخذه ثانيةً يحتضنه ثم أطلقه قائلاً: (اقرأ). فأعاد: ماذا أقرأ؟ فاحتضن أمينُ السماء أمينَ الأرض، وانساب نورُ الوحي إلى سمع الرسول الأعظم وفؤاده ﷺ: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾ العلق: ١ - ٥

(1) ابن هشام: 236/1، وفي البخاري : ما أنا بقارئ؟

الله.. وجلاله، والحدث.. وعظمته، والكلمات.. وسموّها؛ أرجفت قلب الحبيب ﷺ وملأته دهشةً وانبهاراً وإجلالاً، فسَرَت الخشية إلى نفسه، فهزت كيانه، فخرج ميمّماً شطر بيته مرتجفَ الأطراف مرتعدَ الجَنان، مهرولاً إلى حيث يلقى الحَنان ويغشاه الاطمئنان.

وفي سكنه زمّلته زوجه بعطفها، ودثّرته بحنانها حتى هدأ، فسألته، فحكى لها ما واجهه، وبثها مخاوفه، وانبسطت أجنحة الطمأنينة عليه وهو يسمع حديثها قائلةً: (والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتُكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق)[2].

لم تكتف بالقول بل قرنته بالعمل، وانطلقت معه إلى حيث ظنت أنها ستجد المؤيّد لكلامها، والدليل على إحساسها، والحسم فيما حلّ عليهما، وشعاعُ الأمل يكبر في عينيها، فيهزم الظلام من حولها ويقول لها: (لئن وجدتِ ضالتك في تاجرٍ صدوقٍ فإن ضالةَ فؤادِك التي أخفيتها حتى عن نفسك بمنقذٍ لهذه البشرية الغارقة في الوحل لهي قريبةٌ منك أيضاً).

دخلت على ابن عمها ورقة بن نوفل الذي أوتي علماً من الكتب السماوية وعرف النبوات والديانات، وقد فطنت الحكيمة العاقلة إلى أن الأمر أعظم من أن تكفي فيه اجتهاداتٌ شخصيةٌ، أو آمالٌ ذاتيةٌ، وأنه لا بد له من خبيرٍ مطلعٍ يؤكد الأمر أو ينفيه، أو تجد عنده المشورة والتوجيه. وخبرته الخبر فهتف فرِحاً: والله إنه للناموس الذي أنزله الله على موسى.

(2) حديث عائشة السابق عن الرؤيا في مبحث (المتفكر): "أول ما بدئ به رسول الله ﷺ..." أخرجه البخاري. كتاب بدء الوحي. باب بدء الوحي. حديث رقم 3.

وأخذته الحمية واشتعلت في عروقه الواهنة نار الحماسة، واتقد في قلبه وهج العمل لإنقاذ العالم مما هو فيه على يدي قائدٍ أمينٍ، فأضاف صادقاً من كل قلبه: يا ليتني فيها جذع إذ يخرجك قومُك. وعجب الأمين: أو مخرجيّ هم؟ قال ورقة: لم يأت رجلٌ قط بمثل ما جئت به إلا عودي وأخرج. وأضاف عازماً مخلصاً: وإن يدركني يومك أنصرْك نصراً مؤزراً[3].

كلماتٌ كبيرةٌ ومسؤوليةٌ جسيمةٌ، وحِملٌ ثقيلٌ، وأملٌ عذبٌ جميلٌ، تضافرت كلها ليعظم شعور المسؤولية في نفس الحبيب ﷺ، ورويدًا رويداً تألقت نيران الشوق إلى تحديد المنهج وتجديد الاتصال بالسماء، وقد حدث، وتتالت الآيات ترسم الطريق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ ﴾ المدثر: ١ - ٧ (لا راحة بعد اليوم) كذا نطقت جوارحُه، وصدقتها أعماله، الطريق طويل، والعبء ثقيل، والمسؤولية عظيمة، والدرب شائك. قابلَ تلك الأمورَ همةٌ عاليةٌ، وحماسةٌ دافقةٌ، وحكمةٌ واعيةٌ، وإرادةٌ صلبةٌ قويةٌ، وصدقٌ في العمل، وجدٌّ في الطلب.

وبدأ العملَ في محيطه الداخلي، وكيف لا يبسط رداء الخير على أهل بيته؟ فكان أولَ الركب خديجةُ المباركة[4]، والصبيُّ الكريم عليّ بن أبي طالب[5]، والمولى

---

(3) أصل خبر ورقة بن نوفل وابن هشام 238/1 وانظر حديث عائشة السابق في البخاري.

(4) إسلام خديجة: انظر ابن هشام 240/1.

(5) (كان أول ذكر من الناس آمن برسول الله ﷺ وصلى معه وصدق بما جاءه من الله تعالى علي بن أبي

المحب زيد بن حارثة[6]. وهل كان يجوز أن يخرج لمن هو بعيد عنه وينسى أو يهمل أقرباءه؟ إن تمهيد الأجواء الداخلية خطوة كبيرة تمهيداً للعمل الخارجي، ورغبةُ الخير للأهل والولد أقوى، وتقوية العضد بمن يسنده من الداخل أولى.

وهم قد عرفوه وخبروه، وتصديقُهم عونٌ له ودعمٌ روحيٌّ كبيرُ يمهد للانطلاقة، ويساعد الآخرين على القبول، وقد رضوا بما جاء به إذ وافق نظرةً سليمةً، وهم مؤمنون بصدقه عارفون بفضله فوحّدوا الله وعافوا ما كان عليه قومهم مما لم يكن يوافق عقولهم، أو يلقى أي هوى في نفوسهم.

ثم وسّع دائرة الدعوة فكان صديقه أبو بكر[7] أول المقربين من خارج الدار، دعاه إلى التوحيد فأجاب، ودعا عددا ممن يعرف فأقبلوا، واستمرت دعوة الحبيب ﷺفي دائرةٍ ضيقةٍ تجتذب كل يومٍ إلى حمى الإسلام بعضاً ممن كتب الله لهم سعادة الأبد، أقبلوا وقد وجدوا في الدعوة الجديدة ريًّا لعطش قلوبٍ ظمأى وبرداً لنارِ أنفُسٍ حيرى، ورقيّا لإنسانيةِ الإنسان إلى ما تستحقها مما يوافق تكريمه، ولجماً لعاصفةٍ هوجاء من الأفكار والانتقادات كانت تقتصر في عصفها على عقولهم دون أن يخرجوها.

إلا أن ذلك كله كان يجري في سِرّيّة كبيرةٍ لكيلا تصل أخبارُهم إلى قريش المشركة، وسِرّية الدعوة في تلك المرحلة كانت أمراً لازماً محتماً، فهذا دينٌ جديدٌ،

طالب بن عبدالمطلب بن هاشم رضوان الله وسلامه عليه وهو يومئذ ابن عشر سنين) انظر ابن هشام 245/1.

(6) إسلام زيد (أول ذكر أسلم وصلى بعد علي بن أبي طالب) انظر ابن هشام 147/1.

(7) إسلام أبي بكر: انظر ابن هشام 249/1.

وفكرةٌ تصادم ما عليه أهلُ البلد من عقائد وعادات، وتنكر أوضاعهم، وتدعو لتغييرٍ شامل في حياتهم، يمثّل قلْباً كاملاً لها مفهوماً وشكلاً ومضموناً، وإن تغيير العقائد والعادات لشديدُ الوطء على المرء تضيق به نفسُه، ولا تجيبه إليه إلا بعد شدة، وقد تُعرض ولا ترضى بالتغيير أبداً.

وهو ﷺ في عقر دار الشرك، ومركز الوثنية العربية التي يحج إليها العرب من أنحاء الجزيرة كافة، فتشبثهم بما هم عليه سيكون بلا ريب أقوى من غيرهم، ولهذا كان من المهم أن يكون انبثاق نور الوحي وانطلاق الدعوة الجديدة منهم أيضاً.

فإن أعلنها وهو فردٌ واحدٌ، أو معه أفرادٌ، فعرفتهم قريش وحددتهم بأسمائهم، وعدت عليهم فأبادت خضراءهم فماذا يبقى؟ وكيف تنمو الدعوة وتنتشر تعاليمها؟ لا بد من جماعةٍ متحدةٍ متعاونةٍ ذات مفاهيم موحَّدة وعقيدةٍ قويةٍ تربطهم مع آصرة الأخوة في الله.

وإن كثر أتباعُه ولكن كانوا ممن أسلم على حرف ولم يكن إقبالهم إلا حماسةً أو عصبيةً أو عاطفةً لحظيةً ثم فتنهم العدو فما يكون موقفهم؟ هل ارتدادهم حينها يفيد الدعوة شيئاً أو أنه يحبط نفسيات الآخرين، ويشي بضعف هذه الحركة الوليدة؟

لا بد من غرْس جذور الإيمان بقوة، وتغذية الروح والقلب بالشوق إلى الجنة، وطلب رضى الله، وتعليق النفوس به، وتوطيد صلتها بخالقها، وتثبيت النفس وصهرها بنار الشوق وإنضاجها بحرارة المحبة لتخرج قائمة على سوقها مستوية تمام الاستواء، قويةً في الله وبالله ومن أجل دين الله، تقف بصلابة أمام المصاعب، وتسمو روحها فوق آلام جسدها الفاني.

لقد شعر بخطرٍ ما هو مقدمٌ عليه، فرتب الأمر ترتيباً يحفظ للأمر خفاءه، ويهيئ له أسباب قبوله، فكان يعرض الإسلامَ الدينَ السهلَ الميسر الذي يدعو لعبادة الله الواحد نافياً ما سواه، وكان يحثهم على الصبر والكتمان، ويترفق في تعليمهم مانحاً قلوبَهم ما تهفو إليه من غذاء الروح، وواحة الأمان وسط قفار الجاهلية التي يسرحون فيها.

ومن تمام تنظيم العمل والدعوة السرية توثقت الحاجة إلى تحديد مكان للالتقاء بعد أن كبر العدد، وتتابع الوحي، واستعرت نار المعرفة في قلوبهم، فكان اللقاء في دارٍ على الصفا حظيت بذاك الشرف، وخُلد ذكرُها إلى الآن معقلاً أول للإسلام تعلّماً وتعليماً وهي (دار الأرقم بن أبي الأرقم).

كان من السابقين إلى الإسلام أثرياء البلاد كعثمان بن عفان، وخالد بن سعيد، وعبد الرحمن بن عوف، ومصعب بن عمير، وكان منهم المستضعفون الأرقاء كبلال بن رباح الحبشي، وياسر وأسرته، وخباب بن الأرت، وابن فهيرة، وأبي فكيهة، والراعي الذي صار لا يُحجب عن القائد: عبدالله بن مسعود.

كان منهم الرجال والنساء، ومنهم الكبار والصغار، وكان لا بد أن يصل الخبر لأهل مكة، وظنوا أنها حركة فردية أو دعوة صغيرة يقول بها محمد (ﷺ) من عند نفسه كما فعل بعض الحنفاء قبله.

وبقي الرسول ﷺ وصحبه في دعوتهم السرية لا يجاهرون بها فلم يؤمروا

بذاك بعد، وكانوا يجتهدون في حالهم الخفي على تزكية أنفسهم، وتعلّم دينهم، وتقوية إيمانهم إلى أن يتهيأ لهم وضعٌ مناسبٌ ليعلنوا الدعوة ويدعوا الناس إليها، ويجهروا بعباداتهم التي يؤدونها مختفين.

إلا أن اتساع دائرة المقبلين عليه جعل القرشيين يتيقظون للأمر جيداً، ويضيقون بهذه الدعوة، ويرقبون بحذر ما تسفر عنه.

ومرت سنوات ثلاث، وجاء الأمر الإلهي بالصّدْع بالدعوة وإنذار العشيرة في قول الحق ﷻ: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ الحجر: ٩٤، وقوله: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ الشعراء: ٢١٤ [8]

فبدأت رحلة الدعوة العلنية، بدأها قائدها بحكمة ليكشف للناس دخائل أنفسهم ويحصل على ردهم واعترافهم بألسنتهم، فتقوم عليهم الحجة.

جاء ﷺ إلى جبل الصفا[9] يرى ما أمامه وما خلفه، ثم نادى وصاح صيحتهم المشهورة (يا صباحاه) فاجتمعوا حوله، فقال: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغيرَ عليكم أكنتم مصدّقي؟

إنه يستوثقُ منهم مقدار ثقتهم فيه، ويستخرج منهم اعترافهم بصدقه، ويقيم عليهم الحجة إن ردوا عليه ما بعده، وكان الجواب المتوقع: (نعم، ما جرّبنا عليك إلا صدقاً).

نطقوا بالحق فشهدوا على أنفسهم، ونال ما أراد، وسجل التاريخ اعترافَ

(8) على خلاف في تقدمهما ترتيبهما.

(9) إبلاغ الرسالة من على الصفا: انظر البداية والنهاية 46/3، وابن هشام 264/1 إلى 269.

الضالين على أنفسهم، فأطلقها كلمةً مدويةً تزلزل عروشَ الأوثان والطغاة والقلوب الضالة: "إني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد".

إنهم الآن في ساحةٍ مكشوفةٍ ومواجهةٍ حاسمةٍ مع أنفسهم، إنهم يعرفون أنه لا يكذب فهل يكون أولُ كَذِبِهِ حين يكذب كهذا؟ لقد شهدوا له قبل قليل فماذا هم فاعلون الآن؟

لم يعرفوا ما يقولون، فتجمد الموقف، وخفقت القلوب بشدة، فانبرى القريب الذي طار فرحا بالأمس حين بُشر بولادته يرد عليه أقسى رد محطماً جدارَ الصمت قاضياً على لحظات التأثر القلبي بالإنذار (تبّاً لك سائر اليوم أما دعَوْتَنا إلا لهذا ؟)[10]

بداية الرد، وبداية المواجهة، وبداية العقبات، وبداية الصدمة من أقرب الناس، وبداية رد الفعل الذي ينبئ عن العنف والمشقة القادمين. وأنى لهم أن يعبدوا إلهاً واحداً وهم قد عموا عن آثار نعمه؟ وكيف يمكن أن يقبلوا بالتسليم والانقياد التام فلا يعود لهم خيار في أنفسهم وأموالهم ليفعلوا ما شاؤوا كيف شاؤوا؟ هل يقدرون على الامتناع عن المظالم وردّ ما سبق، والتخلي عن السيادة الروحية التي تعترف بها لهم الجزيرة العربية؟

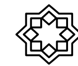
أسئلة تجلى في هذا الموقف بوادرُ جوابها، وستحمل الأيام القادمة تأكيده، ثم تحكم الأيام التي بعدها لمن تكون السيادة؟ وما السيادة التي يجب أن تكون؟

---

(10) البداية والنهاية 46/3، وفي لفظ البخاري (ألهذا جمعتنا؟) كتاب التفسير، باب سورة تبت.

يا جاهلين على الهادي ودعوته ** هل تجهلون مكان الصادق العلم
لقبتموه أمين القوم في صغر ** وما الأمين على قول بمتهم [11]

سيتبلور رد فعلهم، وكيفية مواجهته لهم في الفترة المقبلة التي سنتعرف عليها في المبحث الجديد: (الداعية الثابت).

(11) الأعمال الشعرية الكاملة . شوقي . 1/ 197 والبيتين من البحر البسيط.

المبحث الثاني: الداعية الثابت

لم يثنه الصّدُّ، لم يوقفه الرّد، لم تمنعه القسوة، لم تعقه الشدة، مضى يصدع بما أمر، ينذر ويبشر، ويفضح جهالة القوم وضلال عُبّاد ما دونَ الله، يذكرهم بحقيقة هذه الآلهة وبعجزها وبأنها من صنع أيديهم لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً، ولما احتجوا بأنهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم سفّه رأيهم وقبح عملهم باتباع من قبلهم دون تحكيم العقول، فجاء في نظرهم بما لا يمكن السكوت عنه، وكيف يرضون بتسفيه عقولهم وعيب آلهتم وتضليل آبائهم وهم ذوو الغيرة والحمية والأنفة دون أن يردّوا على من يواجههم بهذا؟

لم يقدروا أن يبطشوا به؛ لأن عمه أبا طالب الذي رعاه صغيراً لم يُسلمه كبيراً، لقد قام أمامهم دونه، وتعهد بحمايته ومنعه مما يريدونه به، وهم ـ على مساوئهم وجاهليتهم ـ أهلُ أمانة لا يخفرون لأحدٍ ذمةً ولا يقطعون له عهداً.

ثم إنهم إن قتلوه فلن تسكت عنهم عشيرته، وسيسيل الوادي بدمائهم جميعا حتى ما تبقى منهم باقية؛ لذلك آثروا سلوكَ طريقٍ يذللُ لهم تلكم العقبتين: مساندة أبي طالب، وقيام عشيرته دونه إن قُتل.

قرروا إزالة الجدار القوي الذي يستند إليه فيكشفون ظهره، ويتعرضون له بما يكره، أو بما يشق عليه لعله يعود عما يدعو ويقول. ففكروا أولاً في إثنائه عما هو فيه بالحسنى بأن يكفّه عمه عنهم، فيسكت عن دعوته، ويكف عن تسفيه آلهتهم وسب آبائهم، وبذلك يفوزون بالسلامة فلا يضطرون لإيذائه ـ أو عمه ـ أذى يستعدي عشيرته عليهم أو ينفخ بقوة في نار الحرب بينهم، ولا يخفرون ذمة أبي طالب وهو من أشرافهم المعدودين.

لذلك بدؤوا المفاوضات مع العم، فساروا إليه يشكون ما يصيبهم من ابن أخيه فيردهم ردّاً رقيقاً، فلا يرعوون، بل يعودون أخرى يلحون عليه، ويهددونه، ويتوعدونه بقيام حرب إن لم يكفّ ابن أخيه عما يكرهون منه، فعظُم عليه ذاك القول فأرسل إلى الرسول ﷺ قائلاً: يا ابن أخي، إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا، فأبق على نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق.

ظن الرسول ﷺ أن عمه قد تخلى عنه، وضعف أمام تهديداتهم، فحزنت نفسه لكنها استقوت بالله، وجمعت شتات النفس في ردٍّ صلبٍ عجيبٍ، وعزمٍ لا يلين.

هنا يتجلى الثبات، وتسمو الروح على الدنيا، وتستعلي على المصاعب، فيقول بثبات يفوق الجبال الرواسي: (يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته)[12].

ثم فاض دمعُه، وقام عن عمه الذي أُخِذ بهذا الثبات العظيم، وتغلبت روحُهُ المحبةُ الواعية على النفس الضعيفة الخائفة، فناداه، وقال له ما أقرّ به عينه: اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً. وأنشد:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ** حتى أوسّد في التراب دفينا

فاصدع لأمرك ما عليك غضاضة ** أبْشر وقرّ بذاك منك عيونا[13]

ولكن هل يسكت قومه؟ لا .. لا يمكن أن يدعوه، ولا يجوز أن يسكتوا

(12) انظر الخبر في ابن هشام 1/ 265 . 266، والبداية والنهاية ص 50/3.

(13) البداية والنهاية لابن كثير 51/3.

عمن ينال من هيبتهم ويسفه آلهتهم ويهدد مكانتهم، فاستأنفوا محاولاتهم بإقناع أبي طالب. غطى الحنق بصائرهم، وغشى عقولهم بسحابة قاتمة فخرجوا بفكرةٍ جديدةٍ: المبادلة. فليعطوا أبا طالب أجمل فتى في قريش وأقواهم فيتخذه ابنا يستفيد بنصرته، وينال ديته، ويسلمهم ابنَ أخيه يفعلون فيه ما شاؤوا دون أن تقوم عليهم عشيرته لأن ولي أمره راضٍ بذلك وهو الذي سلّمه!

لقد أطار الغيظ صوابهم، ومنعهم الغضب سلامة التفكير، وهكذا يفعل الغضب دوما، وجاءهم الرد المستنكر لعلهم يفيقون: "والله لبئس ما تسومونني، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبداً[14]".

ثباتٌ نبويٌّ أنجب ثبات العم المدافع عن ولده بحرارةٍ قلّ مثيلها ثابتاً في وجه الأعاصير الغاضبة والرياح الهوجاء التي تهب من عقولٍ يقودها الشيطان.

ولم يكفّوا عنه أو يكتفوا بمحاولاتهم المتكررة مع عمه، فعدّدوا أساليب مواجهتهم له ومحاولاتهم إثناءه عما يريد، ووصلوا في بعضها إلى عرض ديته مضاعفةً مقدماً ليُسلِمَه قومُه فيقضوا عليه دون أن يقوموا عليهم!

ثم كان مما انتهجوه في ذاك أن يعملوا على القضاء على الفتنة ـ في نظرهم ـ من أصلها، ولكن دون دماء، وذاك بأن يتنازل عن معتقداته، ويهجر دعوته. وكان السبيل الذي تفتقت عنه أفكارهم هذه المرة هو الإغراء بالدنيا؛ فقد جال بعقولهم المريضة خاطرٌ يقول لهم إنه قام لهذا الأمر يبتغي رياسةً عليهم، أو جاهاً يبسط به سلطانه على الجزيرة، أو مالاً يعلو به على من حوله، أو أن ما يصيبه

(14) ابن هشام 267/1.

هو في أقصى الحالات رئيٌ من الجنّ يأتيه رغماً عنه لا يستطيع له دفعاً.

ونظروا في أمرهم: إن شاعت دعوته فهو القضاء على سيادتهم، ونهاية سيطرتهم ومكانتهم الروحية والدينية، وانقطاع أهم موارد حياتهم، وظهورُه عليهم سحقٌ لمكانتهم، وعارٌ يلحقهم بين قبائل العرب إن رقى قمتهم وملك أمرهم بدينه.

بدأت الفكرة في ذهن عتبة بن ربيعة بعدما رأى إسلام عدد من أشراف قريش، وتزايُدَ أتباع الدعوة النامية، وبسرعةِ برقٍ خاطفٍ نقلها إلى لسانه فسَرَتْ في عقولهم وتمكنت من قلوبهم، فأسرعوا يوافقون، وتولى هو المهمة.

فأقبل على الرسول ﷺ فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السّطة[15] في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل مني بعضَها.

قال ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع. فقال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرَنا مالاً، وإن كنت تريد به شَرَفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابعُ

(15) المنزلة الرفيعة المهيبة.

على الرجل حتى يداوى منه.

فلما فرغ تلا عليه الرسول ﷺ آيات من سورة فصلت، فأصغى عتبة مطرقاً في البدء، ثم أسكت النبيَّ ﷺ عندما بلغ قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ من شدة تأثره بالآيات وخوفه من الوعيد الذي فيها، ثم ذهب إلى أصحابه وقد بدا على وجهه ما ينبئ عن عظيم تأثره بما سمع حتى أقسم المنتظرون: لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.

فجاء وقال بعد أن حلّق فكرُه فيما سمع مأخوذاً به، متأكداً من أنه فوق طاقة البشر، وأجال نظره في أوضاعهم، ووضع عقلُه احتمالاتٍ أشمل لما يمكن أن تثمر عنه الدعوة، فعرضها عليهم قائلا: إني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونَنّ لقوله الذي سمعت منه نبأٌ عظيمٌ، فإن تصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكُه ملكُكم، وعزّه عزّكم، وكنتم أسعَد الناس به. فكان ردهم المألوف: لقد سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. فقال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.[16]

وأعادوا الكرّة مجتمعين، وقوبل عرضهم كما قوبل عرض عتبة من قبل، فلم يقووا على كتم مشاعرهم فإذا بشجرة العناد تتفرع أغصاناً من الطلبات المستهزئة وأفناناً من الكلمات الساخرة نستعيض عن تفصيلها ونذكر آيات الله فيها: ﴿

(16) انظر ابن هشام 1/ 293 ـ 294، والبداية والنهاية 73/3 ـ 76.

وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٤﴾ ﴾ الإسراء: 90-94.

واستمرت تلك المحاولات لا تنقطع فمن مساومةٍ إلى مناصفةِ دينٍ إلى مجالس مواجهةٍ مع النبي إلى طلباتٍ ببيناتٍ تؤيد ما يقول، وتستمر سلسلةُ أفعالهم ضاربةً مثلاً كبيراً في عناد الباطل وقوته في باطله ومثابرته عليه، وتستحثّ أهل الحقّ على المثابرة أيضاً وعدم اليأس أبداً، ونبذ الخور والعجز والتهاون في حقهم.

وبين هذه المحاولات وتلك الإغراءات لم تكن قريش تقف لترى النتائج بل كانت تجتهد في إيذاء النبي ﷺ وأصحابه، وكان إيذاؤهم نفسياً وجسميًا. فأما النفسي فتركز على الاستهزاء واللمز والسخرية بالنبي ودينه وصحبه، يأملون أن يؤثروا بكلامهم في المسلمين حين يرون أن دينهم وحالهم ليسا محل قبول من قومهم، ويظهر لهم أنهم اختاروا طريقاً خاطئاً فيتراجعون عنه.

وأما الجسديّ فقد طال رسول الله ﷺ المحمي في ذمة عمه ـ وهم أهل حفظ الذمم ـ كما طال صحابته من الأشراف والمستضعفين على السواء. تعرض ﷺ لإيذاءاتٍ كثيرة تمس شخصه وجسمه، وتؤذيه في نفسه وبيته ودينه، لكن الله تعالى كان يحفظه منها، فيغشي أبصارَهم حينا، أو يرسل له من يعينه أو يخفف

عنه ما يصيبه كابنته فاطمة التي ترفع الأذى عنه فتسكن روحه بقربها، أو يمنحه قوةً نفسيةً يلقيها في قلبه، أو يواسيه ويسليه بقصص آبائه الأنبياء تتنزل عليه في كلام يُتلى إلى يوم الدين يثبته ويثبت صحبه وكل من يليهم، ويُري الجميع سنةَ الله في الكون ومضي الرسالات وناموس الحياة وإتمام النور، وفعلَ البشر تجاه الدعوات الجديدة التي تهدف إلى رفعهم من وحل الدنيا إلى سموّ علويّ يرقى بأنفسهم ويجعل الدنيا في أيديهم وتحت أقدامهم بعد أن يخرجها من قلوبهم، وليعلموا أن من أكثر الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، وأن المؤمن مبتلى، وأن الله يبتلي خلقه ليمحصهم ويزيد المؤمنين إيماناً، قال ﷻ: ﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ الأنعام: 10. وقال ﷻ : ﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ الأنعام: 33-34.

تتعدد صور الإيذاء التي مر بها رسول الله ﷺ، وسجل القرآن عدداً منها، ولعل مما قرأت في هذا: كتاب (صور من تأذي الرسول ﷺ في القرآن) وهو يقتصر على الأذى المذكور في القرآن الكريم، جمع فيه صاحبه (عثمان مكانسي) الآيات التي تذكر ذلك في القرآن كله، وفي كل المواقف النبوية التي خلدت بآيات الذكر، وشرح بعض ظروفها، وفصّل في توضيحها.

وثمة إيذاءات لم تذكر في القرآن وإن كان قد أشار إليها ضمناً بآياته،

ونقتصر على بعض حالات الأذى التي تعرض لها ﷺ، لعلها تعرِّف المسلم بما لقي رسوله في سبيل عقيدته وتثبته مهما لاقى حين يرى دعوته قد بلغته الآن بعد قرابة 15 قرنا من الزمن لم تشكل فيها تلك الإيذاءات إعاقة عن السبيل بل كانت خزياً لفاعليها ورفعةً لدرجات الواقعين تحت الأذى، وخلوداً ونشراً لدعوتهم برغم أنوف الكارهين.

وسأذكر ـ على كره ـ شيئاً مما لقيه ﷺ ممن امتلأت نفوسهم شرّاً ومارت غيظاً وتفتتت حسداً، فمدوا إليه أيديهم بالإيذاء، وشرعوا ألسنتهم تقذفه وأصحابه بجارح الكلام، وتمطرهم بسهام الاستهزاء.

كان أكثر مَن تولى كِبر هذه الحملة الشعواء عمه المحب بالأمس المغيظ اليوم أبو لهب، وزوجه، وهما جيران النبي ﷺ في بيته، وشارك رئاسةَ حزب الكفر المحارب أبو جهل وعقبة بن أبي معيط. فأما أبو لهب وزوجه فقد أمرا ولديهما بتطليق ابنتي النبي ﷺ لينشغل بهما، ويريه في بيته وبناته ما يكره، ويكون عندهم ما يعيبونه به. ولما توفي (عبدُالله) ولد النبي ﷺ صاح في الناس منادياً إن محمداً قد صار أبتر.

ولما كان ﷺ يدعو الناس في المجامع والأسواق كان يسير وراءه صائحاً في الناس: (لا تطيعوه، إنه كذاب). فكيف يكون أثر ذلك في الناس وهم يرون العم يكذّب ابنَ أخيه؟ ولم يكن يكتفي بالتكذيب فقد كان يضربه بالحجر حتى يدميه عليه الصلاة والسلام.

وأما امرأته فقد كانت تحمل الشوك وتضعه في طريق النبي ﷺ وعلى بابه ليلاً، وكانت تحد لسانها وتطلقه فيه، وتمشي بالنميمة والافتراء بين الناس مؤججةً

نار الفتنة بينهم، وجاءته مرة بحجارة تملأ كفها تريد قذفه بها فلما بلغته أخذ الله بصرها عنه فلم تره، وكانت قد قلبت اسمه من محمّد إلى مذمّم، وتفننت بذمه في شعرها في المجالس والطرقات. فخلد القرآنُ ذمّها وذمّ زوجِها إلى قيام الساعة في سورةٍ كاملةٍ: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥ ﴾ المسد: 1-5.

فكان من تثبيت الله لنبيه أن كان يُنزّل عليه آياتِ القرآن تخلّد ذم مَن يناصبه العداء، ويرفع شأن نبيه في الدنيا والآخرة، فمن ذلك الرد على قولهم إنه (أبتر) بمنحه الكوثر[17].. خير يكثر ورزق للأمة يُذخَر إلى يوم المحشر، وذرية طيبة تبقى من بعده من نسل ابنته، فإن حُرم الأبناء فإنه لم يحرم البنات ولا بقاء الذِّكْرِ بأبناء بناته.. وفي هذا ما فيه من رفع قيمةِ المرأة وتقديرها وكونها سبباً لذكر الرجل وليس بأبناء أبنائه فحسب. كما أبدل الله عز وجل ابنتيه خيراً من زوجيهما اللذين قدّرا أن يكون فراقهما بؤساً على البنتين وأبيهما، فيجعل الأب مهموماً بهما فيؤثر ذلك سلباً في دعوته، لكن قيض الله لهما الرجل المسلمَ عثمان بن عفان الذي خرج بعز الدهر: بلقب ذي النورين لزواجه منهما واحدةً بعد الأخرى[18].

(17) بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣ ﴾ .

(18) فقد صح أن عثمان رضي الله عنه تزوج من رقية بنت رسول الله ﷺ فلما توفيت عقب غزوة بدر الكبرى زوجه الرسول ﷺ من أختها أم كلثوم فلقب بذي النورين

وأبو جهل أيضاً كان يؤذي النبي ﷺ بالقول والفعل، ويجاهر بالعداوة، وينهى عن الصلاة، وتجاوز كثيراً، فقال مرة: واللات والعزى لئن رأيته لأطأن على عنقه[19] ولأعفرنّ وجهَه. وأقدم عليه وهو ساجدٌ يصلي لربه يريد تنفيذ قسمه لكنه نكص على عقبيه فزعا متغير اللون فقد رأى ما لا قبل له به: (إن بيني وبينه لخندقاً من نار مهولاً وأجنحة). ولم ير مَن معه شيئاً مما ذكره، وقال الرسول ﷺ: (لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً).

وعقبة بن أبي معيط: بصق في وجه النبي ﷺ، وضع ثوبه في عنق الرسول ﷺ وهو يصلي بالكعبة، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ وقال للمعتدين: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟

وغير هؤلاء كثير من الأشقياء[20]، لكن ما فعلوه لم يكن إلا ذرةَ رملٍ أمام صخرة الثبات المحمدي، فبالثبات تتضاءل الآلام، وتفنى المشاق، وتزول المغريات فتصير أقل من هباءة، ويبقى الدين مرفوع الهامة، فإن حامله ليس ضعيفاً أو واهناً، إنه جبلٌ بل أرسى، جذرُ شجرةٍ أصيلة بل أرسخ، قوةُ ريحِ تغيير بل أرشد، بحرٌ واسعٌ بل أرحب، إنها نفسُ المؤمن.. أقوى ما على هذه الأرض وأثبتُ ما وُجد عليها إن صدقت واتصلت بخالقها.

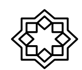
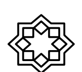
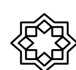
لقد أتته الدنيا، فهي كلها معروضة عليه في أعلى صورها: المال والملك،

---

(19) القصة رواها البخاري في الصحيح في كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝ ﴾ حديث رقم 5010.

(20) انظر تفاصيل أكثر في باب (ذكر ما لقي رسول الله ﷺ من قومه) ابن هشام 289/1 إلى 291، ومن 294 إلى 321، وانظر البداية والنهاية 3/ 51 إلى 78.

ولكنه لم ينحن لها، وجاء الأذى ونال بيته وصحبه، فلم يتقهقر مقدار أنملة، وكان ثباتُه العجيب نورَ دربِ الإسلام ليصل إلى العالمين، وكان ﷺ في مسيرته راعياً حنوناً، وموجهاً حكيماً، وخبيراً نفسيًا، يعرف قيمة الأمل فيزرعه في النفوس ليشع نورُه في القلوب، وعبر الدروب، فتعلو الهمم، وتتحرر من أسر الطين إلى سماء أعلى وهدف أرقى. (زارع الأمل) وهو خيرُ زارعٍ للأمل نتابع معه رحلة الأمل في الصفحات التالية.

المبحث الثالث: زارِع الأمل

نال الأذى الرسولَ ﷺ والمسلمين، وكانت الوطأة الجسدية أشد على الأصحاب؛ لا سيما الأرقاء، أو مَن ليس لهم عشيرة تقوم دونهم، ولم يكن الرسول ﷺ يملك لهم شيئاً وهو يراهم أمامه يتعذبون ويصرخون، فهو لا يقدر أن يعطيهم شيئاً من الدنيا، ولا أن يدفع عنهم ضراً، ولم يعِدْهم بذلك أو يعاهدهم عليه، لكنه يضمن للمؤمنين الصادقين الجنة بإذن ربه، فليس عنده غير هذا الأمل الكبير يغرسه في نفوسهم فتنال منه زادَها فتقوى على الألم.

ولا يخلو بين حين وآخر من أن يزف لهم بشرى المستقبل القريب الذي قد لا يدركونه بأنفسهم، ولكنهم يطمحون لتحقيقه، فيزرع في قلوبهم اليقين بحصوله، فيعلمون أن الطريق إليه هو ثباتهم فيزدادون تمسكاً بعقيدتهم وصبراً على أذى مخالفيهم.

تلهبت رمضاءُ مكة تحت أشعة شمس الظهيرة الحارقة، وزاد لهيبَها لهيبُ جمر متأجج بُسط هناك، وإذا بجسد ضعيف يلقى عليها فتحرقه ويطفئها، يطفئها من شحم جسمه السائل عليها بعد أن يذوب إثر الحرق الشديد للجلد، ولا يكاد هذا المشهد ينتهي حتى تتعالى صرخات هذا الشاب الضعيف من جديد وهو تحت وطأة الحديد المحمّى.

عذابٌ متصاعدٌ لا يكاد يصمد أمامه أحد، فأعطهم أيها الشاب الضعيف ما يريدون وانجُ بنفسك. (لا .. والله لا يكون)، ولا يزداد قلبه المتألم إلا إيماناً وإصراراً على ما هو فيه ولا يعطيهم ما يريدون! وماذا يريدون؟ إنها كلمة فقلها.

(لا .. لن يكون ذلك).. هكذا تردد عيناه بعد أن احتبس الصراخ في حلقه من شدة الألم.

ويذهب يوماً إلى الرسول ﷺ صاحب الدعوة التي آمن بها هذا الشاب خبّاب بن الأرت، فيقول له وقد استبد به الألم من شدة العذاب: يا رسول الله ألا تدعو الله لنا؟ فإذا بالرسول الخاتم ﷺ محمر الوجه غاضباً يقول: (قد كان من قبلَكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه. والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون) [21]

بشرى أطلقها الرسول ﷺ وهو وأصحابه في هذا العذاب الشديد، والأذى الكبير الذي لا يتوقع معهما أي ظهور وأي نجاة.

وهذا عمار بن ياسر وأبوه وأمه تحت سياط العذاب، يعذبون بالضرب وبالنار لا يردهم شيء من ذلك عن إيمانهم بالواحد الأحد. ويمر بهم قدوتهم وحامل رسالة الله إليهم، فيلقاهم على تلك الحال، فيبشرهم: (صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة)[22].

الله أكبر! ومن ينال هذه البشرى العظيمة من رسول الله ﷺ ثم يتوانى أو يضعف؟ وتحملوا العذاب الشديد في دنياهم والأمل الذي زرعه الرسول ﷺ في

(21) عن خباب بن الأرت في صحيح البخاري .كتاب الإكراه . باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، حديث 7029.

(22) البداية والنهاية 70/2.

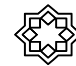
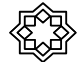
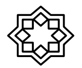
قلوبهم يزهر ويثمر حتى لقي الوالدان ربهما تحت تأثير العذاب.

وأما الابن الذي كان يُلبَس دروع الحديد تحت الشمس الملتهبة فقد ثقل عليه العذاب، فقال بلسانه كلمة الكفر مكرهاً! فأطلقوه، فولى وجهه شطر رسوله باكياً يخبره بما كان منه، فيسأله الرسول ﷺ: وكيف تجد قلبك؟ قال: مطمئناً بالإيمان.

فجاءته البشرى والشهادة النبوية: (فإن عادوا فعد). و(عمار مليء إيماناً من فرْقه إلى قدمه). واستحق إيمانه أن يخلد في الذكر الحكيم مع إشارة لطيفة إلى سبيلٍ مستقبلي من سبل الخلاص: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ النحل: 104-110.

كان ذلك العذاب والثبات سبيلاً لتقوية الإيمان بالآخرة، والتعلق بالله وحده، ورجاء ما عنده، والزهد في الدنيا والعيش في رحاب الآخرة، وليكون ذلك كله سوطَ يقظة ينصب بقوة على المتفرجين من بقية أهل مكة، ليتأملوا، ويسلكوا سبيل الحق بعد أن بدأت منزلة قريش المتغطرسة بالانهيار التدريجي في أعين الناس على الرغم مما تمارسه من البطش وتظهره من جبروت في مواجهة الضعفاء الذين اختاروا سبيلهم في هذه الحياة.

وكان الصبر هو السد الذي يواجه به المصطفى كل محاولاتهم التي تبوء بالإخفاق والخيبة أمام الصبر المحمدي الذي لم يجدوا له مثيلاً، فإلى شيء من لمحاتِ الصبر الذي كلّل الحياة النبوية مع المبحث الجديد: (الداعية الصابر) وأنعم بصبرِ رسول الله ﷺ من صبر تتواضع أمامه الجبال، وتتراجع الأسفار التي خطت قصص الصبر العظيمة التي شهدتها الدنيا.

المبحث الرابع: الداعية الصابر

طال ليلُ الأذى على المسلمين يخيم فيه الخوف من الفتنة والتطلع إلى أمل بفجر جديد، فوجّه رسولُ الله ﷺ معلمُ الصبر الأول وقدوةُ الصبر الأولى صحبَه المضطهدين إلى الهجرة إلى الحبشة فراراً بدينهم، ونجاة بأنفسهم، وحريةً لممارسة شعائرهم التي لا يقوون عليها إلا متخفين متكتمين.

ونلحظ في الهجرة ملحظاً مهماً وهو ما وصف به رسول الله ﷺ النجاشي ملك الحبشة موضحاً سبب اختياره لها لتكون مهاجَر المسلمين فوصفها بأنها أرض صدق فقال: (لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه)[23]. ويحق للمرء أن يتساءل وهو يشم رائحة الشرط الذي يحدد نوعية الأرض التي يجوز الهجرة إليها-: هل يجوز ما يفعله بعض المسلمين الذين يضطهدون في بلادهم الآن من الهجرة إلى بلاد الكفر التي يتحقق فيها شيء من العدل الظاهري لكنها تبقى بعيدة عن العدل الصحيح لا سيما إن تعرضت لضغوط دولية أو جرت مصالحها بما يضاد اللاجئين إليها أو فكرت في قمع المسلمين أو إذابتهم في مجتمعها الكافر ؟

كان الملك العادل شحيحَ الوجود إن لم يكن خيالياً لا يخطر بالبال، والعدل قبلةُ المظلوم ومطمع المضطهد المغبون، هاجر إليه المسلمون مرة ثم أخرى بعدد أكبر، ولم تتركهم قريش فأرسلت وفدها يحمل هدايا للملك وأتباعه لترد

(23) ابن هشام 321/1.

المسلمين إليها وتتابع التنكيل بمن نجح في الفرار منها.

وصل الوفد القرشي المؤلف من عمرو بن العاص داهية العرب وعبدالله بن أبي ربيعة قبل إسلامهما إلى الحبشة، فاتصلا بالبطارقة أولاً وأقنعاهم بما يريدان، ثم حضرا أمام النجاشي فعرضا القضية: إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدينٍ ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه. وأيد البطارقة ردَّهم إلى أهليهم.

هنا تجلى عدلُ النجاشي، ووضحت حكمة المصطفى ﷺ في اختياره واختيار بلده مهاجَراً فلم يقبل بما سمعه من طرف واحد، فليس هذا هو العدل حتى إن قيل له إنهم خرجوا من دينه أو انتقصوا منه ـ بزعمهم ـ، ولن يُسلّم من لجؤوا إليه طالبين الأمان، ولن يخرجهم خائبين، فالعدل رحم الأخلاق، تنجب الصدق والوفاء. فلا تفلح محاولات الناس في تأجيج نار الغضب لتأكل شجرة العدل النامية في قلبه، وأبى إلا استدعاء المهاجرين المسلمين وسؤالهم عما يقول الوفد عنهم. وجاؤوا يتقدمهم جعفر بن أبي طالب[24] متحدثاً عنهم، فسئل: ما هذا الدين الذي فارقتهم فيه قومكم ولم تدخلوا فيه في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟

وكان المسلمون قد وكّلوا جعفر ليتحدث باسمهم ممثلاً عنهم وعن دينهم

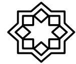
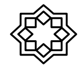
(24) انظر رواية جعفر لقصة الهجرة ووفد قريش في البداية والنهاية 84/3.

وقد عرفوا فيه الحكمة واللسن وقوة الحجة، فتولى الرد موضحاً حاله وقومه قبل الإسلام وما يأتون من الظلم والمنكرات، ثم ثنى بنعمة الله بإرسال الرسول ﷺ وعرف دينه بعبارة موجزة جامعة (فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان)، وأتبع بشرح أخلاقيات الإسلام وأوامره وفرائضه، وختم بموقف قومهم معهم، وفرارهم منهم، وإيثارهم لهذا البلد وحاكمه العادل مبيّناً أثر الدين عليهم وفضله على حالهم البائسة. ثم تلا أول سورة مريم فبكى النجاشي ومَن معه مأخوذين بالقول الجليل، معجبين بحسن عرض جعفر لدينه اليسير البسيط الخالي من التعقيد والتركيب، الواضح منهجاً، القويم سلوكاً.

وأبى النجاشي أن يسلمهم لقومهم فما يئس عمرو بن العاص، وأدار الأمر في ذهنه، وظن أنه قد حصل على ما يضمن له غضبة النجاشي على المسلمين، فذهب إليه أخرى محرضاً من طرف خفي إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً.

ومرة أخرى أبى النجاشي التخلي عن الصفة التي جعلته مطمح المقهورين في العالم، فأرسل سائلاً فجاءه الرد حاضراً من جعفر: نقول فيه الذي جاءنا من نبينا: هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. وتلا عليه آيات من سورة مريم تحكي قصة مولد المسيح عليه السلام! فأخذ النجاشي عوداً من الأرض ثم قال وهو العارف بحقيقة دينه المؤمن بعيسى النبي الرسول: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت مقدار هذا العود.

وأطلقهم أحراراً في أرضه آمنين، ورد الوفد خائباً مقبوحاً يحمل هداياه التي جاء بها، وقالت أم سلمة قولتها المشهورة تصف إقامتهم بالحبشة: أقمنا عنده بخير دار مع خير جار[25].

(25) انظر هذه المقولة في رواية أم سلمة عن رحلة الهجرة إلى الحبشة وما حدث فيها في البداية والنهاية 85/3.

(((المقاطعة الظالمة)))

لقد باءت بالخسران كل عروضها، وعاد وفدها خائباً من الحبشة، وتزايد انتشار الدين، وتعاضد بنو هاشم وبنو المطلب مسلمين وكفاراً على حياطة الرسول ﷺ ومنعه بدعوةٍ من عمه أبي طالب. فلجأت إلى التشديد في أسلوبها المعهود من التضييق على المسلمين، وقد انحصر تركيزها هذه المرة على بني هاشم وبني المطلب قوم النبي ﷺ، المسلم منهم والكافر.

فأسفرت نفوسهم المريضة بالحقد ـ وأنى لمحبي الظلام أن يحيوا في النور ـ عن فكرةٍ جديدةٍ هي المقاطعة، المقاطعة التامة لقومه باستبعادهم، فلا يبيعونهم ولا يشترون منهم، ولا يزوجونهم، ولا يتزوجون منهم، ولا يجالسونهم ولا يخالطونهم ولا يكلمونهم، ولا يتركون أحداً يصلهم بطعام أو لباس أو شراب. وضربت قريش الحصار القاسي، ووثّقته في صحيفة كتبتها وعلّقتها في جوف الكعبة إعلاناً لقداسة ما فيها عندهم، وتأكيداً لاحترامهم لها وإصرارهم على المضي فيها. وتجمع المحاصَرون في شعب أبي طالب لا يخرجون منه ولا يدخل إليهم أحد، ممنوعون من بيع وشراء، محرومون من الزواج من غيرهم أو التواصل مع الآخرين.

ثلاث سنوات ثقيلة وسور الحصار يطوقهم فيعزلهم عن العالم، ثلاث سنوات والألم يتضاعف والجوع يشتد، والحاجة تزيد، والأطفال تصيح. ثلاث سنوات ذاق ويلها المسلمون والكافرون على السواء، ثلاث سنوات بأيامها الطويلة ولياليها المريرة.. كان الجوع يشتد بهم حتى إنهم يأكلون ما يسقط من ورق الشجر. وكانت التمرة الواحدة ربما وقعت لاثنين منهم يقتسمانها فيكون

أحسنهما حظّاً من وقعت النواة في قسمه يلوكها بقية يومه[26].

وبلغ منهم الجوع مبلغاً يصوره لنا قول سعد بن أبي وقاص بعد محنة الحصار بسنين وهو يحكي ما كابدوه فيها: (لقد جعت حتى إني وطئت ذات ليلة على شيء رطب فوضعته في فمي وبلعته وما أدري ما هو إلى الآن).

كان المسلمون والكفار في الشعب معا حميةً وعصبية، ودليلاً على مقدار التكاتف بينهم والتناصر حسب شعارهم المعروف: (ظالماً أو مظلوماً)، وقد كان ذلك الشعار يحقق لهم في كثير من الأحيان النصرة والقوة والعزة، ولكن ظاهرة التعاون والتآزر بين الأقارب والعشائر تلك تنحدر كلما تقدم الزمن . مع أن الإسلام أصّلها حسب المفاهيم القويمة . وتتفكك تلك الروابط، وتضعف الأنفة وتقل الحمية، ويتلاشى التناصر بين القوم والقيام دون بعضهم بعضاً، والنتيجة فقدان كل شيء من حق ومكانة وكرامة وأرض وعرض، ويتضح ذلك أكثر في المسلمين، لأنهم مكلّفون بالإسلام، وعليهم الاعتزاز به والعض عليه بالنواجذ.

قد ينجح الكافر ويصعد ويتقدم، ويتزعم الأمم، ويرتقي أعلى درجة في سلم المدنيات وما يسمى بالحضارات، لكن المسلمين إن ضعفوا أو تخلوا فلا يمكن لهم أن يبلغوا شيئاً من ذلك إلا بالعودة الصادقة لرياض الإسلام، وبـ "وَأَعِدُّوا"[27].

كان يصل إلى المحاصَرين القليلُ جداً من الطعام سراً من بعض من بقي في

(26) مع المصطفى في عصر المبعث: ص 75.

(27) ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡ ﴾ الأنفال 60.

ضميره صحوة وفي قلبه رأفة، وبعض من بقي على وده السابق لهم، مثل هشام بن عمرو بن ربيعة العامري الذي كان يأتي بالبعير ليلاً وقد حمّله طعاماً أو ثياباً، ويصل به إلى مدخل الشعب، ثم يخلع خطامه ويضربه على جنبه ليدخل الشعب على من فيه بما يحمل. ومثل الحكيم بن حزام ابن أخي السيدة خديجة الذي كان يُدخل القمح إلى عمته فيتعرض له أبو جهل في أحيان كثيرة ليمنعه فيقوم دونه من ينصر حكيماً.

ولم يكونوا يخرجون من الشعب لشراء الحوائج إلا في الأشهر الحرم، وكانوا يشترون من العير التي تأتي من خارج مكة، فكانت قريش تبادر إلى شراء ما في العير حتى لا يصلوا إليه، وإن أراد المسلم شراء شيء من أسواق مكة منعوه أو زادوه في قيمة السلع حتى لا يقدروا عليها، فيعودون خائبين والطعام أمامهم وهم عنه ممنوعون[28].

واستمر أبو طالب على حمايته الرسول ﷺ وفدائه ببنيه، فكان (إذا أخذ الناس مضاجعهم يأمر رسولَ الله أن يضطجع على فراشه حتى يرى ذلك مَن أراد اغتياله، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوانه أو بني عمه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ وأمره أن يأتي بعضَ فرشهم)[29].

وكان المعلم الأكبر معهم، يقاسي ما يقاسون، ويعيش خشونة الحياة وحرمانهما مثلهم تماماً، وكان مشرق المحيا بالصبر مع ألمه لما يصيب أصحابه وأهله

(28) انظر الروض الأنف 161/2.

(29) الرحيق المختوم. 98.

من الأذى، كان معهم جميعا، يعلمهم دروس الصبر العملية، ويوجههم لتوحيد خالق البرية، ويعدهم بيوم نصرة لا ريب فيها.

وبقي في مكة بعضٌ من ضمائر واعية وقلوب أبية فتعاهد خمسةٌ من أشراف قريش على نقض الصحيفة، وهم: هشام بن عمرو، وزهير بن أبي أمية المخزومي حفيد عبد المطلب، والمطعم بن عدي، وأبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود بن المطلب الأسدي.

فقام زهير بعد أن طاف بالبيت صباحَ يوم فنادى: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباع لهم ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة. وأيده رفاقه، وقام أبو جهل معارضاً، وبين أخذٍ ورد قام المطعم إلى الصحيفة يريد شقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا (باسمك اللهم)، وهكذا نقضت الصحيفة وانتهى عهدٌ من عهود الظلم والجور بعد ثلاث من السنوات، وخرج المسلمون وقد صقلتهم التجربة، وزادتهم إيماناً وثباتاً ويقيناً بفرج الله وإن طال ليل المأساة، وتشربت أنفسهم تعاليم الدين الجديد، وأمنت في حماه وإن أحدقت بها الخطوب فتوثقت عروة الإيمان، وانتصرت الروح المؤمنة على الجسد الضعيف وعلى مظاهرة البغي، وكانت مقاطعتهم تلك وقت فراغ لهم للتعلم والخلوة والعبادة.

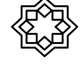
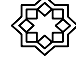
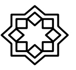
وقد كانت المقاطعة[30] ـ كما تبين من الحديث السابق ـ بعد إسلام عدد من

(30) أصل قصة المقاطعة والصحيفة في ابن هشام ج1/ 350 إلى 354، والبداية والنهاية 3/98 – 99. وخبر نقض الصحيفة في ابن هشام ج1/ 374 إلى 382 ، والبداية والنهاية 3/112 – 115.

أشراف قريش المعدودين، وبعد فشو أمر الإسلام بين القبائل، وإقبال جماعات عليه، فكأنهم أرادوا أن يبينوا لغيرهم ولمن يسلم حديثاً أن هؤلاء محتقرين عند أهليهم فكيف تطيعونهم وتتبعون ما جاؤوا به؟

وتعد المقاطعة سلاحاً فعّالاً في مواقف كثيرة، ولا يصمد من تُوجَّه نحوَه إلا إن كانوا ذوي قوة إيمانية بالله تعالى، ومقاطعوهم من أعداء الله، كما رأينا فيما تقدم، فإن انقلب الوضع، وكان المقاطعون هم المسلمين فأثرها يكون أكثر فعالية إن كانت بإخلاص ورغبة حقيقية في إضعاف العدو، أو تبرئة الذمة مما قد يعينه على المسلمين، أو الإباء وإعلان موقف الرفض من ممارساته. وفي تاريخ الإسلام مقاطعاتٌ من هذا النوع، ومنها مقاطعة فردية قام بها رجل واحد كان قبل أيام منها مشركا، ذلكم هو (ثمامة بن أثال)[31] سيد من سادات اليمامة، قطع عن قريش ما كانت تستورده من اليمامة من غذاء حتى أضر بهم، فاضطروا إلى الشكوى إلى رسول الله ﷺ في المدينة، فأمره أن يرفع مقاطعته عنهم، فاستجاب.

تلك صفحاتٌ من كتاب الصبر العظيم الذي رافق رحلة المصطفى ﷺ من مولده إلى وفاته، ومع كل ما رأى وعانى وما سيصيبه في الأيام القادمة لم يكن منه مع كل ذلك إلا أن يواصل رحلته بإصرار مثابراً في دعوته مجتهداً في طريقها إلى آخر نَفَسٍ من حياته الشريفة، وسيتجلى لنا شيء من ذلك في المبحث التالي: (المثابر المجتهد).

(31) انظر البخاري، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة وقصة ثمامة، رقم 4415.

المبحث الخامس: المثابر المجتهد

انتهت مأساة الشعب والمقاطعة لكن آثارها بقيت في بعض الكبار ممن دخل فيها، فقد وهن أبو طالب الذي جاوز الثمانين وهو يقاسي تلك الشدة، فما كانت إلا أيام حتى مرض مَرَض الموت ثم توفاه الله، فذهب عن الرسول ﷺ حاميه، وسقط سوره الواقي، ومحاميه الأمين، وسنده المتين.

ودّعه ونارُ الحزن تتلظى في قلبه على عمه الحنون، وحزن عليه كثيراً، فقد كان له نعم المعين، ونعم الكفيل منذ طفولته وإلى بلوغه الخمسين من عمره يوم وفاة أبي طالب، وكانت فرصة قريش بعد هذا سانحة للنيل من الرسول ﷺ، لتفعل فيه ما كان يمنعها إياه أبو طالب في حياته، وكانت قد توقعت أن تصول وتجول بعد وفاته، وخشيت أن يعيرها العرب بما ستفعله في الرسول ﷺ بعد وفاة عمه، فذهبت إليه في آخر لحظاته تعرض عليه من جديد أن يكفه عنها، وتتنازل عن شيء مما لم تكن تقبل به من قبل.

وبقي أبو طالب على ثباته في الدفاع عن الرسول ﷺ وعدم إجباره على ما يكره، فلم يقضِ شيئاً دونه، بل استدعاه ليواجه قريشاً فيعطوه ويأخذوا منه، فطلب منهم ما فيه عزّهم الدنيوي إلى يوم القيامة، وفيه نجاتهم في الآخرة: نعم، كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم. فأطمعهم في موافقته، وفي ملك يسوّدون به، فقال أبو جهل: نعم وأبيك، وعشر كلمات.

فأجابهم جواب الداعية العزيز: (تقولون لا إله إلا الله، وتخلون ما تعبدون من دونه) فصفقوا بأيديهم ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن

أمرك لعجب. وقال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم، حتى يحكم الله بينكم وبينه[32]. فنزلت آيات القرآن تحكي ما حدث في سورة ص: ﴿ صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ۝٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ۝٧ ﴾ ص: 1-7.

ولما أعياها انتظرت وفاة عمه فنفّست غيظ السنين الماضيات حين كان في منعة عمه ولم تقدر منه على شيء، فأطلقت سهام حقدها عليه في كل مكان، وإن كان في بيته، فكان جيرانه من أكابرهم يلقون عليه الأقذار وسطها وهو آمن فيها، ويلوثون طعامه وأوانيه، ويقذفون في ساحة بيته كل ما يؤذيه.

وكانت فرحة الطغاة بعد أن بار تدبيرهم السابق في المقاطعة، فرأوا في الحوادث الجديدة قوة لهم وتشجيعاً على ما يريدون، وتجرأ أشقياؤهم فنثروا على رأسه التراب، ووضعوا عليه وهو يصلي أمعاء الشاة، وقذفوه بأنواع مختلفة من القذارات، يفرغون شيئاً من قذارات الأنفس البعيدة عن خالقها، وكانوا يضحكون ويسخرون في كل ذلك، وواجهوه بأصنافٍ مختلفة من الإيذاء كانت أضعافَ ما

(32) ابن هشام 417/1.

لقي من قبل حتى إنه قال ﷺ: (والله ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب)[33].

كان ﷺ فيما مضى يلقى العنت من قومه فيؤوب إلى عمه فينصره، ثم يلوذ إلى خديجة فتواسيه، وتزيل ما علق بصدره من غم، وتمسح بعذب حديثها غبار ألمه، وتسكن بصدق لهجتها اضطرام همه، وتُطمئِن بنبرة ثقتها ارتجاف قلبه، وتهدئ بفيض عطفها اتقاد أحزانه، وتحيطه بجِنان الجَنان فيمسي آمناً مطمئناً وقد خفّ عنه ما يجد إذ واست فأحسنت المواساة، ونصرت فأحسنت النصرة. وإن احتاجت الدعوة إلى مال فأموالها كلها مسخرة لخدمتها.

واليوم ومع اشتداد لاعج الحزن لوفاة العم النصير يتضاعف وهج شمس الحزن في سماء مكة وفي قلب الرسول ﷺ بوفاة خديجة التي أقرأها ربها السلام وهي في الدنيا، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب[34]. فلم تكد فرحة المسلمين بزوال الحصار تطِل؛ حتى أتى هذان الحدثان فأوقدا نارَ حزن جديدة، وسمي العام بعام الحزن، ولم يجد ﷺ مَن يواسيه من البشر بعد الآن على ما يلقاه من اشتداد الأذى في هذه المرحلة، ولم يجد منفذاً لاستكمال دعوته بعد إحكام قريش قبضتها عليه وعلى أصحابه، وصدها المقيمين والوافدين عنه.

فَقَد ﷺ نصيرَه كما فقَد مواسيه، فَقَد الدفء والأمان، والعطف والحنان،

(33) ابن هشام 416/1.

(34) من حديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي خديجة وفضلها، رقم 3868.

والتفاهم والانسجام. فَقَد خديجة أولَ مَن أسلم، وأكثر مَن جاهد بالمال، وذلّل المصاعب والعقبات، وأزال بنور اليقين شبح الخوف، وبدفء المحبة شوكَ الألم.

وتلك سُنة الله في الخلق، الابتلاء على قدر الإنسان، فأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثلُ فالأمثل، وتلك سنة الله فلكلًّ دوره، ولا بد لشمس حياته من غروب لتشرق شمس حياته الأخروية، وهذان خديجة وأبو طالب قد أديا مهمتهما أحسنَ أداء، وآن لهما أن يرتحلا.

وهي أيضاً سنة الله ما بين إشراقة الأمل وإطلالة البلاء ليتوازن القلب المسلم فلا يفرح بما يأتيه من دنياه فرحَ البطر الأشر، ولا ييأس إن أبرزت له المصائب أنيابها، وألقت عليه البلاءات رداء ظلماتها.

ومع كل ذلك الحزن وكل تلك الآلام المتصاعدة، والضربات المتتابعة من قريش، إلا أن ذلك كله على عِظَمه لم يفت في عضد رسول الله ﷺ، ولم يوهن عقدة إيمانه، أو يضعف قوة تصميمه، أو ينخر في جبل الثبات، أو يسقط صخرة الجهاد، أو يفل حد السلاح، ولم يكن سلاحه إلا اليقين والصبر.

أورثه الوضع الجديد دفعة للأمام، وتسللت من شمس الأحزان دفقة من الحماسة وشعلة من الاجتهاد، فاستضاء قلبُه بنور اليقين، ومضى في درب الدعوة لا تهد من عزمه العقبات، ولا تنال من إبائه الصعوبات، بل كبرت شمس الأمل في نفسه تشع ضياء يفوق شعاع شمس الحزن، وبسطت أشعتها المتألقة من قلبه إلى خارج مكة لينشر نور دعوته الربانية إلى الأباعد ما دام قد وجد من الأقارب الصد والعناد إلا من رحم الله.

جمع قلبه على ذاك القرار، ومضى من مهده إلى حيث رجا أن يجد

الاستجابةَ والنصرة، مضى إلى الطائف وهو يعلم أن بينها وبين مكة معاملات وتجارات وعلاقات وثيقة، ولكنه لم يترك ذلك ليؤثر عليه أو يدفعه لليأس، كما لم يترك تلك الأحزان تستبد به لترديه في هوة القنوط أو القعود. مضى إلى رؤساء الطائف آملاً في جواب حسن، لكنه لم يجدهم أفضل من أهل مكة إن لم يكونوا أشد سوءاً، فقد استهزؤوا به، وقال له أحد رؤسائهم: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟ وقال آخر: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت مرسلاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك.[35]

وعرض أمره على كثير من أهل الطائف فلم يجب منهم أحد، فطالبهم بكتمان أمره عن قريش لكيلا تزيد ضغطها عليه وعلى المسلمين إن علمت بخروجِه للدعوة وطلبِ النصرة خارج مكة، لكنهم لم يستجيبوا بل أخبروا قريشاً بأمره، ولم يتركوه لشأنه حين أراد العودة إلى بلاده، فأمروا صبيانهم وسفهاءهم وعبيدهم أن يلحقوه ويؤذوه، فقعدوا له صفين وهو خارج من عندهم، وأخذوا يسبونه ويصيحون به، ويرجمونه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين، وأسمعوه كلاماً قبيحاً سفيهاً، وما زالوا به يتبعونه حتى التجأ إلى جدار بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهو على ذاك الحال كسير الفؤاد مدمي الأعقاب، مغبر اللباس، وحيدا طريداً مهموماً. ولكن أنى لمثله الوحدة وأنى للهموم أن تسيطر عليه، لقد التجأ إلى البستان طالباً البعد عن الناس وما هم فيه من فساد، راجياً خلوة مع الواحد

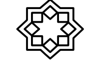
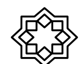
(35) ابن هشام 419/1.

الديان يبث له ما أهمه، ويأنس بذكره ونجواه، ويستضيء بنوره في ظلمة الملمات.

وانطلق اللسان معبراً عن الحال حاملاً الشكوى راجياً من ربه الرضى في كلماتٍ أخاذة، وهمسات ضارعة، ودعوات صادقة: "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى مَن تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمرُ الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك، لك العُتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله[36]".

بعد تلك المصيبة وذاك الدعاء وهو جالس على ذاك الوضع جاءه جبريل فأخبره أن الله يعلم ما به، وأنه بعث إليه ملك الجبال ليأمره فيهم بما يشاء، وناداه الملك: يا محمد، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين لفعلت.

فقال المحب الحريص الناظر للآجل: (بل أرجو أن يُخرج الله عز وجل من أصلابهم مَن يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئاً)[37] وأعظِم بطلب العظماء، وغاية الدعاة!

(36) البداية والنهاية 3/ 157، 158، وابن هشام 1/ 420.

(37) البداية والنهاية 159/3.

المبحث السادس: لمحات أمل في ركب البشائر

استوقفتني وأنا أقرأ في هذه المرحلة من السيرة النبوية ومضات الأمل التي كانت تشع بين حين وحين، تنفرج نوافذها وسط أسوار الشدائد، وتتفتح أزهارها بين أشواك المصائب، فتنثال على النفوس أنوارها، وتتحقق واقعاً قوياً قائماً وسط صروح العناد وقصور الفساد. نعم.. تغدو واقعاً مبشراً بآمال الفجر المرتقب وسط ظلمات الجهل وأعاصير العذاب موطّناً النفس على القبول والرضا بحكمة الله واختياره، وإن فاتنا شيء فالله يعوضنا ويمنحنا أموراً لم نكن ننتظرها أو نحلم بها أو نظن فيها خيراً، ولكن يعلمها الله خيرا فييسرها. ولعل غرسه الأملَ في نفوس أصحابه من قبل هو الذي أنجب بفضل الله هذه الومضات وتلك البشريات.

سأبدأ بإذن الله من حيث انتهيت في الفصل السابق في رحلة الدعوة في الطائف، فقد أوى إلى جوار الله مناجياً ضارعاً، ولم يقبل بإهلاك القوم على ما لقي منهم، ولبث في مكانه ذاك قرب بستان شيبة وعتبة وهم من أعدائه، بقي يدعو الله متضرعاً إليه، ورآه عتبة وشيبة على حاله تلك فرق قلباهما له، فأرسلا خادمهما عداساً بقطفٍ من العنب إليه، فأتاه فقدمه، فسمى الله وبدأ يأكل فقال عدّاس النصراني متعجباً من البسملة: هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد! فسأله عن بلده ودينه فقال: نصراني من نينوى. فقال ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟

فتساءل عداس: ما علمك بيونس؟ قال: ذاك أخي، كان نبيًّا وأنا نبي. وقرأ

له من كتاب الله قصة يونس، فأكبّ عداس[38] عليه يقبل اليدين الشريفتين والرجلين الداميتين، ومسح النورُ المتدفق من فؤاده كل ما كان من همّ في النفس النبوية التي سعدت بتثبيت ربها ورسائله إليها بهذه الومضات النورانية من هذا القلب الصادق.

وفي طريق العودة إلى مكة حدث حادثٌ طريفٌ أكد انتشار دعوة الحق إلى الثقلين، فقد قيض الله له نفراً من الجن في الطريق استمعوا إليه وهو يتلو القرآن في صلاته في جوف الليل، فتزاحموا يريدون السماع مأخوذين بهذا الكلام العجاب، ثم تفرقوا وولوا إلى قومهم ينذرونهم بعد أن آمنوا وأجابوا إلى ما دُعوا إليه[39]، ونزلت آيات سورة الجن وسورة الأحقاف تبين ذلك الحدث الفريد وتسجل تاريخ وصول رسالة الإسلام إلى عالم الجن:

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ الأحقاف: 29-32.

وأقبل إليه داعيهم مرة ليذهب معهم ويقرأ لهم، فاستجاب لهم وقرأ عليهم

(38) انظر قصة عداس في البداية والنهاية 158/3، وابن هشام 421/1.

(39) انظر قصة الجن في ابن هشام 1/ 422.

القرآن، وأسمعهم سورة الرحمن، فكانوا إذا قال: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ يقولون: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد.

ولما عاد إلى مكة في جوار المطعم بن عدي[40] دخل وهو يقرأ على أصحابه سورة الجن فتطمئن قلوب المسلمين، وتنشرح صدورهم لبلوغ دعوة الإسلام إلى إخوانهم من الجن تأكيداً لعالميتها، وبشارة بانتشارها في العالم كله.

ولما عاد من الطائف كانت الهدية الكبرى والبشارة العظمة، ونترك حديثها لما بعد لنعود إلى البداية ونتتبع بعض ومضات الأمل حين بدأ ﷺ الدعوة الجهرية.

ففي اشتداد وطأة التعذيب، ووسط تبجح قريش وتطاولها على النبي ﷺ أشرق ضياء أمل جديد في إسلام حمزة بن عبد المطلب[41] عم النبي ﷺ، وكانت مشاغبات قريش وإيذاءاتها هي نفسها السببَ المباشر في إسلامه رضي الله عنه؛ فقد بلغه أن أبا جهل قد أساء إلى النبي ﷺ بقوله وفعله، فثارت الحمية في نفسه، وانطلق يمتطي الغضب تقوده الشهامة إلى حيث أبو جهل في ناديه، فأعلنها أمامهم: أتسب محمداً وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فرد علي ذلك إن استطعت. ثم شجه بقوسه، ولم يقل أبو جهل شيئاً.

قالها حمزة حمية وأنفة، ثم تغلغلت في القلب الطاهر فأشرق بنور الإسلام، ووجّه قياده إلى حيث النبي المختار معلنا زيادة الركب المبارك فرداً بمائة فرد. انطلق قوله من قوس لسانه وكان حقًّا، وثبتت البشرى بإسلامه، وتلاه بعدها بأيام

(40) انظر قصة إجارة المطعم له وطوافه ﷺ في البداية والنهاية 3/ 159.

(41) انظر قصة إسلام حمزة في ابن هشام 1/ 491، 492.

عمرُ[42] الذي أسلم في وضع تضاعف فيه العذاب على المسلمين، واسْتخفوا بعباداتهم ولقاءاتهم عن المشركين، فأسلم عمر وهو في طريقه للنيل من النبي ﷺ فسمع وهو في طريقه إليه بإسلام أخته وزوجها، فيمم بيتها وقد فارت مراجل الغضب في نفسه، لكنه ما كاد يصل ويسمع من خلف الباب ما يتلى في بيتها من آيات لم يتبينها جيداً حتى هدأت نفسه قليلاً، فطرق الباب ودخل سائلاً عما سمع، وكانوا يخشون رد فعله العنيف وهو أشد العرب شكيمة، وأقواهم بطشاً، وأبعدهم عن الإسلام كما قال أحدهم: (لا يسلم عمر حتى يسلم حمار لخطاب). فأخفوا عنه إسلامهم وآياتِ الله التي كانوا يتلونها، فثار ما سكن من غضبه، وبطش بهما، ثم خالجه الندم حين رأى أخته نازفة الدم صامدة على موقفها مجاهِرة بإسلامها وإسلام زوجها متحدية بقوتها الضعيفة غضبه الجاهلي: (نعم، قد أسلمنا فماذا أنت فاعل؟)

فأراد سماع ما يقرؤون فأعطياه ـ بعد تطهره ـ صحيفةً فيها سورة طه، فأشرقت أنوارُها في صدره، ولم يملك إلا أن يقول: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! دلوني على محمد. وبزغت شمس البشرى الثانية بإسلام عمر بين يدي رسول الله ﷺ . وأصر على إعلان الإسلام فمشى في العرب معلنا ذلك مجاهراً به أشدَّهم عداوة، وترأس صف المسلمين مع حمزة قائد الصف الثاني، وخرجوا جميعاً أول مرة إلى المسجد، فصلوا وطافوا وقريش تنظر إليهم نظرَ العاجز وقد استبد بها الحقد والغيظ، وأقعدها الخوف من هذين القائدين الفردين عن التعرض للمسلمين بأي أذى.

(42) انظر قصة إسلام عمر في ابن هشام 342/1 ـ 348.

ومع آخر ليل المقاطعة الحالك وفد إلى الرسول ﷺ وفد من نصارى نجران يبغون لقاءه ليستوثقوا مما وصلهم من الخبر عنه، فسارعوا إليه لرؤيته والتأكد من صفاته التي عرفوها من كتبهم، ولما التقوه وسمعوا منه القرآن آمنوا كلّهم، وعادوا إلى قومهم مسلمين مبشرين بالدين، لم يحفلوا بمن يصدهم أو يعترض طريقهم أو يحبط هممهم، فقد لقيهم أبو جهل وعرف أمرهم فقال لهم: ما رأينا ركباً أحمق منكم، أرسلكم قومُكم تعلمون خبر الرجل فصبأتم! فكان ردُّهم رد عباد الرحمن: سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه[43]. ومضوا في طريقهم تحفهم الرحمة، وتتلألأ فوقهم أنوار الإسلام، فتنير ظلمات اليأس والظلم.

وبعد عودته ﷺ من الطائف داخلاً في جوار المطعم بن عدي. إذ لم يقدر على دخولها منفرداً بعد وصول أنباء خروجه للطائف ودعوته فيها. قصدَ مكةَ الطفيلُ بن عمرو الدوسي فاستقبلته قريش التي كانت تتصدى للوافدين إليها فتقعد لهم بكل طريق، وتصدهم عن سماع الدعوة، وينفثون في عقولهم سموم شائعاتهم التي تشوه الإسلامَ وكلَّ ما يقوله النبي ﷺ. أرادوا بذلك أن يحدّوا من خطر الدعوة التي اجتهد فيها النبي ﷺ ليبلغها للحجاج ولكل من يأتي مكة، فأجمعوا أمرَهم بعد تفكير وتقدير أن يصفوا ما يأتي به بالسحر، وكان للوليد بن المغيرة الذي عرف واعترف بأن القرآن ليس بسحر ولا شعر ولا كهانة ولا سجع قصب السبق في تأكيد وصف الإسلام بالسحر، ودليلهم على ذاك أنه يفرق به بين المرء وزوجه أو ولده أو قبيلته، واستدلوا بما حدث بالفعل لبعض المسلمين الذين ذاقوا حلاوة الإيمان فكان الله ورسوله أحب إليهم مما سواهما، فعصوا الأهل

(43) قصة إسلام نصارى نجران في ابن هشام 1/ 392.

والأقربين في سبيل طاعة الخالق، وفارق بعضهم إلى بلاد أخرى فراراً بنفسه ودينه حين ضيّق عليه أهله، فاتخذ المشركون هذا الأمر دليلاً وشاهداً على ما يقولون.

وبهذا نال الطفيل نصيبه من التحذير، بل إنهم أكثروا عليه لشرفه وعقله ومكانته في قومه حتى عزم على ألا يسمح لصوت القرآن أن يصل إلى أذنيه أبداً، وألا يكلم الرسول ﷺ إطلاقاً. حتى ليُقال إنه قد حشا أذنيه قطنا لكيلا يصلهما صوت الرسول ﷺ عندما ذهب إلى الكعبة فرآه يصلي عندها، إلا أن أمر الله نافذ، فتسللت بعض الكلمات بترتيلها الفريد، وإيقاعها الجميل إلى قلب الطفيل، فوجدت في صدره أرضاً خصبة للقبول، فانغرست فيها نابذةً أشواك المستهزئين والمحذرين، وثاب الرجل إلى رشده، واستنكر فعله، وملك زمام أمره، ومنح القياد لعقله فقال مخاطباً نفسه: واثكل أمي! والله إني رجل لبيب شاعر، وما يخفى عليّ الحسن من القبيح فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته؟ وفعل.. وأصاب سهم الكلام الرباني قلبَ الهدف إذ نزع القطن من أذنيه واستمع فانبهر فقال: يا سبحان الله! ما سمعت كاليوم لفظاً أحسن ولا أجمل منه. والتقى بالرسول ﷺ فحدثه وسمع منه، ثم تولى إلى قومه داعياً حتى قدم المدينة بعد الهجرة ومعه سبعون أو ثمانون بيتاً من قومه أسلموا[44].

(((إلى السمـاء)))

أحزانُ الفَقد، و[illegible]ت الص[illegible]سافر في [illegible] المصطفى ﷺ، تزيدها

(44) أصل قصة الطفيل ودعوته لقومه في ابن هشام 1/382 ـ 385.

اشتعالاً رقته وحنانه وشوقه لمن فَقَد وخوفه على الناس، وحرصه الكبير على نجاتهم من النار، وغيرته على الله ألا يعبد غيره.

وفي حمأة المرارة التي تتلهّب في فؤاده يلمع نور أمل جديد في وافد الليل البهيم، إذ يشاء المولى سبحانه أن يدعو رسوله ﷺ أجلّ دعوة لم يُدعَ مثلها أحدٌ قط، دعاه المولى سبحانه إليه.. إلى السماوات.. إلى العالم العلوي.. إلى أجداده وآبائه الأنبياء.. فكانت أعظم سلوى في تاريخ الدنيا عوضه الله بها ما لقيه من صد وإعراض وسخرية إذ لم تُجَب دعوته لأهل الطائف، فدعاه رب السموات والأرض.

جاءه جبريل الأمين بدابة عجيبة ركبها ﷺ فانطلقت به في لحظات قصار حتى حط الساري في بقعة من أشرف بقاع الأرض وأطهرها.. في بيت المقدس[45].. فصلى فيه ركعتين. وانطلق إلى الرحلة الفريدة في تاريخ البشرية، انطلق من الأقصى سلمِ المعراج يعرج[46] في طرقات السماوات ملبياً دعوة خالقه، مارّاً في طريقه بقادة البشرية قبله: الأنبياء عليهم جميعاً الصلاة والسلام. وصلى بهم إماماً، وصلوا خلفه مأمومين مُسلّمين قيادة الأرض إليه، وإلى دينه الخاتم المهيمن على ما بين يديه وما خلفه، معترفين له بإمامة الأرض إلى قيام الساعة.

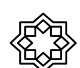
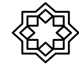
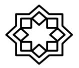
وفي السموات العلا حدّث ربه وهو منه قاب قوسين أو أدنى فتلقى الأوامر الإلهية والفروض الربانية، واستمتع القلب في بحار النور، ورأى آيات الله الكبرى، ثم عاد إلى الأرض، وأخبر أهل الأرض، فمن سيصدق ذهابه إلى الأقصى في ليلة؟

(45) وردت قصة الإسراء في ابن هشام 396/1.
(46) قصة المعراج في ابن هشام 403/1 ـ 408.

ومن سيصدق عروجه إلى السماء؟ وكان التمحيص، عاندوا وكذبوا كدأبهم، وارتد بعض ضعاف القلوب من المسلمين، وثبت المصطفوْن. طلب المعاندون أدلة فجاء بها، فلم يقبلوا ومضوا في غيهم سادرين.

لكن أنى لهم أن يؤثروا فيه بعد أن عاش النور، وفي النور، وبالنور، أنى له الحزن بعد اليوم على فعل البشر وقد دعاه رب البشر فأكرمه بما لم ولن يحظى به أحد.

وهكذا يوالي الله آيات النصرة لنبيه فيثبت فؤاده ويتيقن أن الله حين يشاء النصر فهو يهيئ له أسبابه وأنه إن أراد الأمر فهو كائن لا محالة مهما قامت دونه العقبات فكلها أمام إرادة الله عدم. وتبقى ومضات الأمل تحدو ركبَ البشريات لتغرد في سماء المسيرة النبوية.

المبحث السابع: المبايع

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ الفتح10

لم يكن شيءٌ ليعوق النبي ﷺ عن المضي في دعوته، فواصَلَ ما كان قد بدأ به منذ المجاهرة بالدعوة من عرض الإسلام على الوفود القادمة إلى مكة في المواسم والتي منع منها في المقاطعة، فاستأنف تلك الدعوة بهمة أكبر وهو يرجو أن يجد من ينصره ويمنعه من غير قومه، فليس بقادر على نشر الدعوة ما دام أهل بلده يضيقون عليه وعلى المسلمين، ويمنعونه من عرضها على الناس، فلا أمان يناله المسلمون ليتفرغوا للدعوة أو العبادة وهم مضطهدون معذبون، ولا بد للداعية من حرية يمارس فيها شعائره ويدعو الناس إلى الدعوة بقوله وبفعله حين يرونه، وشيوع الإسلام والتمكين له وإيصال كلمة الله للناس كافة لا بد له من مركز قوي ودعامة تسنده وحرية في العبادة والتبليغ، وهذا ما لا يجده في قومه وفي أرضه، فخرج إلى القبائل يدعوهم، وكان الصد هو الرد.

دعا القبائل التي تفد للحج أو للتجارة في مواسم الأسواق، دعا الوافدين فرادى وجماعات، لم يجبه أحد بل أغلظ بعضهم القول له، وبقي على تلك الحال إلى أن قيض الله في السنة الحادية عشرة ستة أو سبعة من أهل يثرب[47] لقيهم في العقبة بمنى فدعاهم إلى أمره فلم يعجبوا من دعوته فقد سمعوا كثيراً من اليهود

(47) لمزيد من التفصيل حول اللقاء وبيعة العقبة انظر ابن هشام باب (بدء إسلام الأنصار) 1/ 428 وما بعده.

الذين يسكنون بلادهم عن نبي اقترب موعده، واليهود تظنه منها لكنهم سبقوا إليه ورضوا بما قال، واقتنعوا بما جاء به، ورجوا أن يكون انحيازه إليهم ونصرتهم له وانتشار أمره فيهم إطفاءً لنار الحروب الأهلية الطاحنة الدائرة رحاها بلا توقف بين قبائلهم، فأجابوه وأسلموا وتعهدوا بالدعوة بين أهليهم إلى الإسلام، وقد فعلوا فأحسنوا، فانتشر أمر الإسلام في يثرب حتى لم يبق بيت لم يدخله ذكر الرسول والإسلام.

وجاؤوا في العام القادم وقد تضاعف عددهم فالتقوا بالنبي ﷺ عند العقبة، وكانت البداية بالتوثق مما سيقدمونه للإسلام ولنبي الإسلام، فبايعوه بيعة النساء بلا حرب، بايعوه على ألا يشركوا بالله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ولا يعصونه في معروف[48].

وأرسل معهم مصعب بن عمير سفير الإسلام الأول، ومعلم أهل يثرب شرائع الدين، يعين على نشره بين بيوتهم، وتمكينه بإذن الله في قلوبهم. وتم ذلك بفضل من الله وعاد مصعب في العام التالي حاملاً بُشريات الخير، وتبعه جمع من أهل يثرب جاؤوا يبغون لقاء الرسول ﷺ وإعطاء البيعة ليقدم إليهم فينصروه ويؤيدوه ويعينوه على نشر دعوته.

والتقوه في الليل خفية عن قريش وعن بقية ركب أهل يثرب من المشركين الذين صحبهم مسلمو يثرب في حجهم إلى مكة، ولم يكن وحيداً، كان معه عمه العباس من أشراف قريش، جاء يستوثق من عزمهم على النصرة، وإلا فليتركوه في

(48) انظر ابن هشام 434/1.

بلده خير من أن يخرج فيخذلونه فقال: (إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلّموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده[49]).

لكنهم كانوا على قوة من الإيمان والإصرار والإخلاص فقال قائلهم: قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت. فحدثهم وبايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأولادهم. بايعوه كما قال عبادة بن الصامت: (بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأَثَرة علينا وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم).[50]، وبايعهم وقد تدافعوا لمصافحته ومبايعته، وبايع النساء، فقد كان مع الوفد المبارك امرأتان أقبلتا تمثلان نساء يثرب، وكانت المبايعة بالحديث دون المصافحة، فلا يحل لرجل مسّ امرأة لا تحل له.

واستوثق بعضهم من بعض وأكدوا إصرارهم على النصرة والمنعة وقد علموا أن مبايعتهم له وخروجه إليهم قد يوصل لهم شيئاً من مصائب أو ينزل من بلاء، وعلموا أن بيعتهم له وخروجه إليهم فيه فراق لما عليه سائر العرب، وقد يجر عليهم ذلك الفعلُ الخطرَ الكبير، لكنهم قالوا: نأخذه على مصيبة الأموال وقتل

(49) ابن هشام 1/441-442.

(50) ابن هشام 1/ 454.

الأشراف.

وأرادوا أن يعرفوا ما لَهم بذلك وما مقامهم عند ربهم فقال غارساً في النفوس الغاية الكبرى والرغبة العليا والأمل الوضيء: (الجنة). فقالوا في حزم من لا ينوي التراجع ولو على قطع عنقه: ابسط يدك. فبايعوه كلهم رضي الله عنهم وأرضاهم.

وهكذا تهيأ للإسلام وطن يلجأ إليه فينمو ويثمر في سبيله إلى تأسيس دولة تكون مشرق النور ومنبع الضياء للعالم كله.

وتعينت الهجرة من مكة إلى الوطن الجديد لا سيما بعد إمعان المشركين في إيذاء المسلمين إثر تسرب خبر معاهداتهم مع أهل يثرب، وخرجت أفواج المهاجرين بأمر رسول الإسلام ﷺ تاركة المال والأهل والسكن، قاصدة أرضاً غريبة مضحية بكل ما تملك في سبيل الفرار بدينها لتعبد الله في أمنٍ وحريةٍ بلا قيدٍ أو فتنةٍ، ولتمهد الدرب لإنشاء دولةٍ عظيمةٍ يعزّ فيها المسلمون فينتقلوا من حالة الضعف إلى حال القوة فيخرجوا للدنيا وتدين لهم الأرض.

ولم تدعهم قريش بل قعدت لهم كل مرصد، ولكنهم تحدوا كل ما تفعل وخرجوا سرًّا، أو لحقتهم فأقعدت بعضهم، أو افتدوا خروجهم بكل ما يملكون.

خرجوا وسجل التاريخ في صفحات الفداء والبذل بأحرف الإيمان النوراني تضحياتهم، خرجوا وسجل القرآن مواقفهم مثنياً عليهم: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ الحشر: 8.

كان ممن خرج صهيب الرومي الذي جاءهم وليس عنده مال فلما أراد

الخروج لحقوا به وقالوا: أتيتنا صعلوكاً حقيراً فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك؟ والله لا يكون ذلك. فقال صهيب: أرأيتم إن تركت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ فقالوا وقد ظنوا أنه لن يقدر عليها: نعم.

فأعلنها مدويةً تملأ سمع الزمان وتصفع كل بخيل أو خائر أو مؤثر للدنيا على ما عند الله: فإني قد جعلت لكم كلَّ مالي! وخرج من عندهم صفر اليدين ليس معه إلا ثيابه التي يرتديها، ومضى ميمماً شطر الحبيب إلى يثرب بلد النور خالي الوفاض من متاع الدنيا، عامر القلب بنور الإيمان مضاعَف الأجر عند الواحد الديان، مبشَّراً عند اللقاء بقول الحبيب ﷺ: ربح البيع أبا يحيى، ربح البيع أبا يحيى[51].

ومن المهاجرين الذين أوذوا ومُنعوا أبو سلمة وأسرته، فقد توجه بزوجه وولده ينوي الخروج، فتصدى له قومُ أم سلمة، وحجزوها عن الرحيل معه، وأصر هو على هجرته، فجاء قومه وأخذوا منها ولدها، وتجاذبه قوم أبيه وقوم أمه حتى خلعوا كتفه، ثم انطلق به قوم أبيه، ومضى الأب في طريقه، وبقيت أمه وحيدة بين أهلها، بعيدة عن الزوج والولد، بعيدة عن رفاق الدرب الرباني، بعيدة عن النبي المصطفى، بعيدة عن دار الهجرة، فاكتوى قلبُها بنار الحزن وفاض دمعها سيلاً يغمر الأبطح وهي تجلس عليه كل يوم من أيامها منذ أن حيل بينها وبين زوجها وولدها.

ولما مضى عليها عام وهي على ذاك الحال رقّ لها أحدهم فنصح قومها

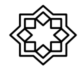
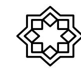
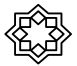
(51) انظر قصة صهيب في ابن هشام 477/1.

فرضوا بإطلاقها لتلحق بزوجها وأعاد آل أبي سلمة ولدها إليها، وقيض الله لها عثمان بن طلحة يقودها عبر الصحراء، يقوم على خدمتها ضارباً أكبرَ أمثلة العفة والأخوة والتعاون على البر والتقوى إلى أن أوصلها إلى زوجها بأمان.

تقول أم سلمة: فوالله ما أعرف أهل بيت أصيبوا كبيت أبي سلمة[52].

وفي قصص المهاجرين عظات وعبر، ودروس بذل وعطاء، ودروس إيثار الباقي عند الله على ما في اليد، ودروس كثيرة سجلها المهاجرون بإيمانهم، وإقدامهم بلا تردد على بلد غريب لا يعرفون فيه أحد، تاركين البلد الحبيب من أجل إعلاء كلمة الله.

ولم تكن آلام الفراق وعذاب طريق الهجرة مقتصرا على المسلمين دون قائدهم، بل إنه ﷺ كان ممن هاجر إلى الأرض الجديدة التي مهّدها لاحتضان الإسلام، فكان واحداً من الركب المهاجر في رحلة خاصة محفوفة بالخطر من كل جهة وفي كل لحظة، لكنه وهو المؤمن الكامل الإيمان يمضي بخطوات واثقة بعد أن يأخذ بالأسباب التي أمره ربه بها، ويواصل المسير متوكلاً على الله عز وجل، فلنتابع تلك الرحلة عبر الصفحات التالية التي تحمل صفة (المهاجر).

المبحث الثامن: المهاجر

(52) قصة أم سلمة في ابن هشام 468/1 ـ 470.

وانتظر الرسول عليه الصلاة والسلام إذن ربه له بالهجرة إلى المدينة، وأعد لهجرته كل ما ينبغي من سبل الأمن من الأعداء، وتيسير الطريق والتزود له، وقضاء كل ما عليه من التزامات في بلده قبل الهجرة.

فكانت البداية برد الودائع التي لديه لأصحابها من أهل مكة الذين كانوا على عدائهم الشديد له يثقون في أمانته، فلا يأتمنون غيره على ما يخافون عليه من أموالهم ونفائس ممتلكاتهم. واستبقى ابن عمه علياً ليقوم بهذه المهمة كاملةً حتى بعد خروجه هو إلى المهاجَر، فما كان الإنسان الأمين ليرضى بأن يخون أمانته في آخر لحظاته، وإن ناصبه أصحاب الأمانات كلَّ عداء أو أخذوا ماله ومال صحبه، فكيف يفعل هذا رسولُ الله حامل رسالة الإسلام، الداعي إلى كل حسَنٍ من الأخلاق؟

وكان مما بذله استعداداً للرحيل التزود للطريق بالزاد والصحاب والراحلة، فاختار أبا بكر لصحبته والذي بدوره قد أعد بعيرين ليحملاهما إلى مقصدهما واعتنى بهما عنايةً تامةً ترقباً للحظة الحاسمة التي كان يتمناها.

ومنح المسلمين الباقين في مكة أدواراً خطيرة كعليٍّ وآل أبي بكر تأكيداً لأهمية كل فرد في دعوة الإسلام وأنه يتكامل مع إخوانه، وأن الصرح الذي ينوون تشييده لا يتم إلا بتكاتف الجهود، وصدق التوجه، وإتقان العمل، والتخطيط السليم، ولقد خص الشباب بأعمال مهمة ولم يستثنهم من خطته، بل أنزلهم في منازلهم التي يستحقون وأكرمهم بوظائف مهمة في هذه الرحلة العظيمة، وقد أحسن كل في أداء دوره بتوفيق الله ﷻ.

وظهر الاستعداد الأمني المتكامل عند الرسول ﷺ في تحديده مكاناً

للاختباء في الطريق للراحة وأمن الطلب، فلا ريب أن قريشاً ستخرج خلفه، ووقع اختياره على غار ثور.

وظهر الاستعداد الأمني أيضاً في تعيين دليل خبير بالطرق يعلم مسالكها ومجاهلها، ويختار ما بعد عن الأعين من شُعبها. ومن مظاهر الاستعداد الاهتمام بأخبار الأعداء بعد خروجه، وما قد يكيدونه له ليردوه، فجعل عبدَالله بن أبي بكر بين القوم يلتقط أخبارهم ويعرف مخططاتهم، ثم يأتيه بها وهو في مكمنه؛ ليأخذوا حذرهم مما قد يراد بهم، وليتحينوا الوقت المناسب لخروجهم لمتابعة المسير بعد أن يخف الطلب وراءهم. وللزاد كانت أسماء بنت أبي بكر، فهي تجهز ما يحتاجون له، وتأخذه إليهم في الغار متجشمةً عناء المسير والإياب في حر الصحراء ووعورة الجبال وثقل الحمل بين أحشائها، وحاملة في الوقت نفسه عبء الرد على من يسأل عن والدها وصاحبه من أهله أو من المترصدين لهما، وكان أولَ الطارقين بابها بعنف للسؤال أبو جهل، فلما أنكرت معرفتها بمكان أبيها وصاحبه . وكان آخر علمها بهما وقد خرجا من الغار . لطمها لطمة قوية أدمت وجهها وأطارت قرطها، وما أطارت ثباتها أو أجرها.

ولأن العرب من قُصاص الأثر البارعين فيه فكان لا بد من إخفاء آثار عبدالله وأسماء في ذهابهما إلى الغار وعودتهما منه، لذلك كان راعي الغنم عامر بن فهيرة يتبع عبدالله فيمحو أثره وهو قاصد الغار، ويرعى غنمه ثم يعود بها في الطريق نفسه الذي سلكه عبدالله أو أسماء في العودة لمكة، فيذهب بذلك كل أثر

قد يدل عليهما[53].

وهكذا تكاملت حلقة الاحتياطات الأمنية، وتهيأت للهجرة مقوماتها، وأحسنوا الأخذ بالأسباب الدنيوية بعد ثقتهم المطلقة في خالقهم ورضاهم بما سيقدر لهم، فكان الأمل النصر والأمن كبيراً.

يكون المرء ضعيفاً بمقاييس الأرض، صغيراً بمعايير الماديات البغيضة، عاجزاً بالمنطق البشري الناقص المنفصل عن مصدر قوته، لكنه إن وثق بربه، وتوكل عليه صادقاً، وأحسنَ الأخذ بأسباب الدنيا كما أُمر دون ركونٍ إليها، مطمئنَ القلب إلى تدبير ربه، راضياً بحكمه وإرادته، فإن الله ييسر له العسير، وتمضي العقبة الكؤود كأنها حصاةٌ صغيرة لا يلتفت لها أحد، ولا تعترض طريق أحد، ويقوم على الهوة الكبيرة سدٌّ يمنعه من التردي فيها، ويغشى حجاب من الله أماكنَ الضعف فلا تُرى ولا تُؤثر.

وهكذا كان.. لما جاء الأمر بالهجرة لم يتوقف ﷺ عن اتباع أسباب الحذر، والتماس أساليب الأمن التي تضمن خروجه سليما ليبدأ نشر دعوته للعالمين، وأعظِم بها من مهمة! وإنما لخسارة للعالم كل خسارة لو لم يخرج.

وكان الرسول ﷺ قد اتفق مع ابن عمه فدائي الإسلام الأول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه على أن يبيت في فراشه في ليلة هجرته التي جاء فيها جبريل يعلمه باختيار الله لها لتكون بداية الانطلاق، وهي أيضاً الليلة نفسها التي دبرت فيها قريش مكيدةً لقتل الرسول ﷺ، وتفريق دمه بين قبائل العرب فلا يقدر قومه

(53) انظر دور آل أبي بكر والراعي في ابن هشام 486/1.

على المطالبة بدمه في هذه القبائل الكثيرة، فيرضون رغماً عنهم بديته دون الأخذ بثأرهم. فأرسلوا عليه أربعين من فتيان تلكم القبائل، متوشحين سيوفهم، مطوقين داره في تلك الليلة التي ظهر فيها بجلاء أنها محفوفة تماماً بالرعاية الربانية.

فخرج ﷺ متبعاً أمر الله، متوكلاً عليه، معلق القلب به، عامرَه بالإيمان اليقين والرضا، يلهج لسانه بالذكر وتلاوة القرآن، وأخذ من أمام بيته المحاصر ووسط الفتية المترصدين حفنة من تراب ألقاها عليهم فإذا بها بقدرة الله يصل جزء منها ليحط على رأس كل واحد منهم، فأغشيت أبصارهم، فلم يروه، وهو خارج بينهم يرتل آيات الله: ﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ يس: 1-9.

وكان نوم علي رضي الله عنه [54] في فراش الرسول ﷺ ضرورة ملحة ليبقى القوم بعد استيقاظهم وتحذير الناس لهم من فوات الطلب وخروجه دون علمهم ليبقوا محيطين بالبيت ينتظرون قيام النائم الذي ظنوه الرسول ﷺ، وسخروا ممن يقول بخروجه من بينهم وهم أمام باب داره، وهو مغطى ببرده في فراشه. وبقوا هكذا مستأخرين عنه لا يدركونه، فمضى بأمر الله وحفظه قاصداً دار صاحبه، ثم انطلقا في طريق

(54) مبيت علي في فراش النبي في ابن هشام 482/1.

هجرتهما والمشركون ما زالوا ينتظرون بالباب إلى أن فوجئوا بخيبة انتظارهم حين قام عليٌّ كرم الله وجهه، وبان لهم إخفاق مكيدتهم وبوار تدبيرهم.

وضرب عليٌّ كرم الله وجهه مثلاً أعلى في الفداء من أجل العقيدة، وفي حماية القائد بالنفس، فأعلى مكانةَ الشباب، وأدى دوره العظيم خير أداء في هذا المنعطف الخطير الذي إن لم ينجح العالم في تجاوزه لبقي في ظلماته الجاهلية، وصدق في علي أن يُنزّل عليه قول الشاعر:

يجود بالنفس إن ضنّ الجواد بها *** والجود بالنفس أقصى غاية الجود

لكن المشركين لم ييأسوا، وضربوا في أنحاء مكة يبحثون عنه، وهاجموا دار صاحبه يمنّون أنفسهم باقتناصه معه، لكنهم لم يجدوا إلا أسماء المجاهدة، فلطمها كبيرهم حتى أطار قرطها[55]، ومضى مغضباً يتابع بحثه، وانطلقوا يحفون الطرقات إلى خارج مكة، ووصلوا إلى المكمن الأمين، فكان قبالة أنظارهم، لو نظر أحدهم إلى قدمه لرآهما، وأخذ القلق من أبي بكر كل مأخذ، فجثم عليه الهم، وبان الحزن على وجهه وفي كلماته وهم محاطون بالعدو خوفاً من أن يظفروا بالرسول ﷺ، فقال له الحبيب ﷺ وهو الواثق بالله: ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ لا تحزن إن الله معنا.

ووقف الكفار على الغار، لكن عناية الله تحرس المتوكلين حق التوكل، فمروا عنه بسلام إذ استبعدوا دخول أحد الغار وقد ضربت عليه العنكبوت بنسجها. فكان من نصر الله لدينه أن هيأ له ذاك المخلوق الضعيف لينبه الناس على عدم الاستهانة بالصغير، وليربيهم على كمال الاتكال عليه بعد استكمال ما أمر به.

(55) انظر ضرب أبي جهل لأسماء في ابن هشام 487/1.

ترامت الصحراء وبدت من كل الجهات واسعةً عميقةً موحشةً مقفرةً ملتهبةً بالحرارة، وفي مكان جبليّ قريب شعت الصخور بدفقات الحرارة، وبدا بين الجبال طريق وعر يمتلئ بالحصى والصخور.

وبدا في الوسط رجلان كان أحدهما يمشي مطمئناً رغم أنه طريد، مبتسماً رغم أنه بعيد عن الأهل والبلد وكان قبل لحظات دامعاً شوقاً لها، هادئاً رغم حرارة الجو ووحشة الدرب، والشفتان تتمتمان بالذكر، والقلب موصولٌ بمعانيه خاشعٌ لربه راجٍ فضله: "أنا عند حسن ظن عبدي وأنا معه إذا ذكرني".

وأما الثاني فقد كان متلفتاً يمشي هنا تارة وهناك أخرى، كأنه يخشى أن يلحقه وصاحبه أذى من يبغي به شرًّا. ومضيا في الطريق الصعب، معهما زادٌ كافٍ لرحلتهما، وفي القلوب زادٌ أعظم. وإذا بفارس[56] مسرع على جواد ينهب الأرض نهبا يسعى خلفهما، وفي عقله هدف واحد، ومشاعره مجندة له، وهو اللحاق بهما مهما كان الثمن.

كاد أن يقترب منهما وإذا به ينقلب عن فرسه، ويسقط أرضاً فقد عثر به الفرس بلا سبب واضح يجعله يتعثر، فقام من سقطته وركب فرسه من جديد وواصل سيره، فإذا بالفرس يقع مرة ثانية ويوقع فارسه في الرمل، فينهض وقد ارتدى حلة ترابية وفوقه سحابة غبار تكاد تعمي عينيه، يتوقف لحظات مفكراً فيما حصل، ويتلفت حوله بحثاً عما فعل به ذاك، ولما لم يرَ شيئاً تسرب إلى عقله شعاعٌ من خوفٍ بثّه المنطقُ الذي حلّلَ الأمورَ واستعاد ما سمعه عمن يطارده،

(56) هو سراقة بن مالك، انظر أصل القصة في ابن هشام 489/1، وقد أسلم بعد غزوة حنين كما ذكر ابن هشام 490/1.

لكن حلمَ الجائزة التي خرج راغباً فيها بعد أن سمع رصدَ قريش لها لمن يأتي بهذا المهاجر خنق شعاعَ العقل، وجعله يمتطي فرسه من جديد، ويمضي في الطريق خلف طريدته.

ولكن.. ما كاد يركض قليلاً ويقترب من الهدف حتى تكرر الحدث، وسقط الفارس والذهول يأخذ عليه نفسه، وقلبه ينتفض بين ضلوعه وشعاعٌ من شعور غريب يمسه بخفة. فما كان منه إلا أن ناداهم، فلما التفتوا إليه صاح يخبرهم عن نفسه وهدفه، ويعلن تراجعه عنه، وتعهده بعدم الإخبار عنهم، ويعرض عليهم ما يساعدهم، فأبوْا، فطلب كتابَ أمانٍ ورسالةَ سلام، فأعطاه خاتم الرسل كتاباً بعهدٍ غريب، يعده بسواري كسرى ملك الفرس وهو خارجٌ من داره لا يأمن على نفسه، لكنه نور الله ينير قلبه، فيسير على هداه، ويبث البشائر ها هنا وها هناك.

ومضت أيام بلياليها والدرب كأنه يطول من شدة جهد البدن، وكأنه يقصر من شدة توثب الأمل في قرب الخلاص، وقرب الاستقرار، وقرب النجاح في الاتصال بالعالم.

ارتفعت الشمس ترمي حممها فتلهب الرمل فيغدو جمراً، واختفت الظلال مفسحة الطريق لأشعة الشمس لاحتلال الأرض الخلاء، ولم يعد غيرها في ذاك المكان وهي تصليهم نارها. وعاد المترقبون من أهل المدينة والمهاجرين إلى بيوتهم كعادتهم كل يوم منذ سماعهم ببدء الهجرة النبوية، حيث يخرجون كل صباح إلى ظاهر المدينة بعد الصلاة، وما كادوا يعودون وإذا بالمنادي يبشر بعزهم: (هذا

جَدّكم قد جاء)[57].

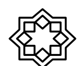
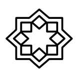
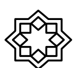
انتفضت القلوب بفرحة غامرة وحلقت حمائم السلام على المدينة المستبشرة، ونسوا لهيبَ الشمس والعرق المتصبب الذي لم يجف بعد، فهرولوا خارجين يحفون بالطريق، وقلوب المهاجرين في شوق إلى الحبيب، وقلوب أهل المدينة في لهفة وجلة إلى المنقذ الذي لم يروه بعد.

وأشرقت الطلعة النبوية من بعيد فاحتضنتها عيون المترقبين بجلال جذِل وسرورٍ مهيب، وتماسّت أنوار النبوة مع أنوار المحبة فتفجَّر نبع الشوق واللهفة في هتافات قوية مرحبة بالقادم الحبيب.

وكان جَدَّ يثربَ بالفعل كما صرخ بها اليهودي وَدّعَتْ به تاريخها الطويل في الصراع الدامي بين قبائلها الذي لم يكف لحظة يتخطف شبابها ورجالها، ويقيم في كل بيت مأتما، واستقبلت رسالة السماء تطهّر القلوب وتؤلف بينها بسلاسة لم تكن متوقعة لولا أن عاينوها بأنفسهم. وانتهت مرحلة كئيبة للمهاجرين كذلك من الأذى والتنكيل، واستعادوا حريتهم الكاملة في أداء عباداتهم وفي الحياة وسط مجتمع إسلامي وحياة إيمانية مشرقة بالآيات والعمل الجاد، وبدأ التنظيم والاجتهاد لإقامة دولة الإسلام وإرساء أسسها بأيدي هذه الفئة الممتحنة التي أثبتت صدقها وأهليتها، وتلك الفئة التي اشتاقت قلوبها للراحة والسلام بعد صراع طويل لفراغ القلوب، وعلى رأسهم جميعاً رسول السماء منقذ البشرية من الضلال يقودهم في ذلك بكل اقتدار.

---

(57) الجَد (بفتح الجيم) هو الحظ والقِسم والنصيب. انظر ابن هشام 492/1.

نورٌ .. من السراج

الصبرُ سلاح الدعاة

قاسى رسولنا ﷺ شدائد كثيرة، وسلك دروباً شائكة، وقدم تضحياتٍ كثيرة، وتجاوز عقباتٍ كبيرة إلى أن نجح في توصيل رسالة الإسلام، ودانت له جزيرة العرب كلها، ومهد الطريق إلى إبلاغ الدعوة للعالم كافة.

ولولا سلاحه القوي (الصبر) لما قدر على إتمام الأمر، وما كان له أن يكون كذلك، فالصبر سلاح قوي يفل حد سلاح الخصم مهما كان متطوراً، وهو فضيلة تدل على علو الهمة، وتمام الاندماج في العمل المطلوب حتى يشعر أنه جزء من نفسه فلا يقدر على التخلي عنه مهما كان الثمن.

والصبر ينبغي أن يكون سلاحَ كل إنسان في دنياه، فليست الدنيا إلا دار تعب وابتلاء، والصبر سر النجاح في مواجهتها. فإن كان هذا الإنسان داعية إلى خير فتملكه هذا السلاح أجدر من غيره، وهو سلاح الرسل والأنبياء، وطريق رفعة الدرجات، وهو سبيل التخلص من كل المصائب مهما طال ليلها.

ويثبت الأمر أكثر في حق الداعية، فما من داعٍ إلى حق إلا وخصومُه كثر، ولا ينفعه غير هذا السلاح إن أخلصه لله. فالصبر والتضحية وقود الدعوة وقوامها وركنها المتين، فحين تكبر الهوة بين الأرض وبين تعليمات السماء، وتزخر بقيء النفس ووسوسة الشيطان، فتطبق الظلمات، ويتردى الناس إلى الحضيض، وتتكالب الأمم عليهم، تزهر حركات التحرر للخروج إلى النور من قلوب صابرة ثابتة على الحق، لا يعميها طوفان الباطل عن التزام سواء السبيل، ولا شك أن

مثل هذه الحركات التحررية ستلقى ما تلقى في سبيل غايتها، ولا بد لها من الصبر والثبات، وإلا فهو الاجتثاث، أو هو البقاء في ذاك الظلم وتلك الظلمات.

والمرء إن تصدى للفساد، وأنشأ الحركات، وطمع في هدي العباد، فطاوله أهل العناد، وصبوا عليه سوط عذاب فتراجع واستكان وضعف وهان، فمن يقضي على المنكرات؟ ومن أين للناس بالقدوات؟

وهو إن رأى الحق فاتبعه، وداخل قلبه فاستقر به، ثم واجهته الصعاب، ونازعته وحوش الظلام، وتكالبت عليه جحافل الباطل تنهشه تريد طمس الحق الذي معه، وإخراجه من نوره إلى ظلمتهم، فخارت قواه واستجاب، ولم يكن للصبر في بلائه مكان، فماذا عمن معه؟ كيف يصمدون و يقاومون؟ وماذا عمن هم بعده؟ كيف يثبتون وعلى الدرب يسيرون؟

إن الداعية في مركز القدوة، ولا بد للقدوة من الصبر والثبات، وإلا باءت جهودها بالخسران، فإن طريقها ليس معبدا بعطر وورد، بل هو مفخخ بالشوك مضمخ بالدم، فعليها أن تضيئه بنور الصبر وعرق الجهد!

وفي حياة الأسوة محطاتٌ عجيبةٌ للصبر، ورسوخٌ تتواضعُ أمامه الجبال، وثباتٌ يفوق ثباتَ انتظام الكواكب في حركتها الدائبة في مداراتها.

لقد تعلم الصبرَ مع أنفاس الحياة الأولى وومضات الوعي المتقدمة بما بثه فيه الله تعالى من قوة التحمل وظلله به من سحائب الصبر، فمنذ الصغر كان اليتم والبعد عن الأم وفقد الجد وعسر الحالة المادية... وكلها مما يعزز الصبر في نفس المصاب بها.

وصحبه الصبرُ في حياته كلها فإن كل حدّث مرّ به أو موقف وقف فيه

كان يحتاج إلى الصبر الذي لم يضنّ به بل كان منبعاً له يفيض منه على أصحابه الذين قابلوا بعض المواقف المشابهة في حاجتها لقوة الاحتمال فكان الصبر سلاحَهم الأقوى.

كما كان التفرد الذي عاشه وسط عبّاد الأوثان الذين يملؤون مجتمعه أمرا يمكن أن يصبح ذا تأثير رهيب على نفسية ضعيفة فإن لم يؤثروا عليها بجذبها لمعتقداتهم فسيكون مصيرها في أحسن الأحوال الانطواء والانعزال والحزن والاكتئاب أو العدوانية و التمرد، ولكن الصابر الجلْد احتمل ذلك فلم يعادِهم ولم يصَب بحزن يقعده عن العمل والحياة.

ومرّت به أيامُ حربٍ نفسيةٍ عانى فيها كثيراً لكن الصبر والاتكال على الخالق العظيم هو السلاح الذي واجه به كل ذلك. ومن يتحمل تلك السخرية أو ذاك التكذيب دون أن يرد أو يثور؟ ومن يتحمل الأذى والسب والاعتداء بنظرة ربانية كما فعل هو حيث كان يقول: قد صرف الله دعاءهم وسبهم عني، ألا ترونهم يسبون مذمماً وأنا محمد؟ فقد كان من لؤمهم أنهم استكثروا عليه الاسم فغيروه، فتوجه سبابهم لغيره وحفظه الله واسمَه من بلوغ الأذى.

لقد واجه صعوباتٍ متعددة مرّ ذكر بعضها من صد الكفار والمقاطعة وجفاء الردود، فصبر على كل شيء، صبر على التكذيب، صبر على صرفهم الناس عنه، صبر على قلب الحقائق الذي كانت تمارسه القوة القرشية باتهامه بغير الواقع وصدّ الناس عنه، صبر على الرمي بالسحر والكفر، صبر على اتهام كلام ربه بالشعر والشعوذة ودجل الكهان، صبر على الاتهام بالتفريق بين الأهل والأزواج وشق وحدة البلد والقبائل، صبر على أفعال الخصم، وعلى طعنهم في صدقه

ونزاهته، صبر على اللغو في القرآن الذي كانوا يتواصون به: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ فصلت: 26.

صبر على المفاوضات القرشية ومضى مع قريش في عرضها يسمع منها ويرد عليها لكيلا تقول إنه لم يمنحها فرصة تقديم العروض المناسبة له كما يظنون، صبر على الإغراء والعروض التي قدموها له أو لعمه، صبر على الإغراء كما صبر على الإرهاب فقد أرهبوا العم الذي كان يحميه ليسلمه لهم بالتهديد بحرب شاملة يباد فيها أحد الطرفين أو كلاهما، كما أرهبوا الأصحاب على أمل إقلاعهم عما هم فيه لكن جبل الصبر هزّ كيانهم وشتت تدبيرهم وأحبط مكائدهم.

وفي المقاطعة على شدتها ازداد هو والمسلمون إصراراً فكانوا خلال فترة الحصار يخرجون ويلتقون بالوفود القادمة من خارج مكة يحرصون على دعوتها وتبليغ الحق لها ويصبرون على ما يواجههم من كلام المشركين أو طعن المستهزئين.

صبر على ما رأى من عذاب رفاقه ومعاناة متبعي دعوته، كان يراهم يتألمون وكان يتألم وهو يسمع صرخاتهم، لكنه كان صابراً يبثّهم حرارة الحماسة من معين الصبر الدفاق الذي يفعم قلبه فيعود عليهم بالهدوء والسكينة.

صبر على الحزن الذي واجهه بفقد أصحابه كما صبر بعد ذلك على فقد أولاده، فقد ابتلي بوفاتهم في حياته، كان يفجع فيهم وهم في سنّ صغيرة يأمل فيها كل أب أن يداعب ولده ويعلمه ويلاعبه لكنه كان يفقدهم واحداً بعد الآخر، كان يدفنهم بحزن وصبر، كان دمعاته تسيل وهو صابرٌ لا يقول إلا ما يرضي ربه.

وفي مرحلة تالية حين وجد الأرض الحنون التي تضمه وتقبل دعوته وخاض المعارك بكل ما فيها مما لا يقوم له إلا الصبر.. صبر على الإعداد الحربي وحسن التخطيط والقيادة، صبر على الحرب وعلى استشهاد أهله وصحبه، صبر على تنازع أصحابه وجنده كما فعلوا مع الأنفال في بدر، وصبر على عصيان رفاقه وتركهم مواقعهم في المعركة مما قلب النتيجة فكانت الهزيمة التي تلقاها بصبر وحسن ردّ كالمعتاد، وصبر على الإصابات التي نالته شخصياً في هذه المعركة وصبر على تفرق أصحابه وتشتتهم في الميدان بعد انهمار أسلحة المشركين عليهم.

وصبر على الطعن في العرض في واحدة من أشد المآسي النفسية التي واجهت الحبيب ﷺ حين نَسَب المغرضون إلى زوجته (عائشة) ارتكاب الفاحشة وتأخر نزول الوحي للحكم في القضية، وبقي الناس شهراً يخوضون في الحديث الباطل، وكان الحزن والهم كبيراً، فمن ذا الذي يرضى بالفضيحة، ومن الذي يرضى بالظلم والقذف؟ ومن يرضى بالطعن في عرضه؟ وكيف لو كان من يوجَّه له كل هذا هو المصطفى المختار من رب الأرباب خالق الأرض والسماء؟ كانت أياماً ثقيلةً بددها ظهور الحق بكلمات القرآن في سورة النور، فأزالت الهم، وأوصلت الدرس للمؤمنين أن يظنوا في أنفسهم خيراً، وكان صبرُ الرسول عظيماً مثلما كان حزنه عظيماً، فجاءت البراءة العظيمة بفضل الله هدية الصبر وجائزة المظلوم[58].

وصبر على التربية فقد كان يبني النفوس ويعنى بتزكيتها وتنقيتها وهذا يتطلب جهداً فائقاً وصبراً غير محدود ولا ينهض له إلا الأشداء.. صبر على

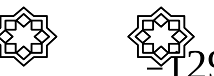
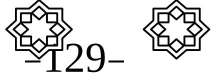
(58) انظر حديث الإفك في ابن هشام 2/297ـ303، وفي البخاري كتاب المغازي، باب حديث الإفك، حديث 4193.

رغبات النفوس وصبر على المطالب العجيبة التي تنساق مع الهوى وتعارض ما جاء به كما حدث مع من طلب منه أن يأذن له بالزنا فما كان منه إلا أن احتمل ما لم يقو رفاقه على سماعه، صبر وأحسن علاج النفس بمخاطبة العقل والقلب فكان النجاح حليفه في التربية فكان أعظم المربين.

لقد استكمل أنواع الصبر، فقد صبر على الأذى والمكروه كما تقدم تفصيله، وصبر على الطاعة فاستقام على العبادات وإبلاغ الدعوة بكل ما يناله عن ذلك، وحرص على الالتزام من أصغر فرض رباني إلى ذروة السنام: الجهاد.

وصبر عن المعصية فهو عفيفُ النفس الذي يأنف من المعصية ولا يقربها بل يدعو إلى تركها فهو المعصوم المطهر والمربي الأكبر. فأنعم بمن تقلب في أنوار سيرته وتنعم بسماع أقواله ومعرفة أفعاله!

ومسيرة الصبر لا تتوقف عند اكتمال قواعد الدولة بل هي أكثر تأكيداً فيما بعد من أجل حمايتها، والسهر على سلامتها، وتوفير الطمأنينة لأهلها، وصد العدوان عنها، وتأديب من يفكر في إيذائها، وهكذا كانت حياة المصطفى سلسلة متكاملة الحلقات من الصبر واليقين، فدخوله في مرحلة البناء والتأسيس لدولة جديدة كان بحاجة إلى الصبر تماماً كما احتاجته المرحلة السابقة، وفي الفصل القادم سنجد إضاءاتٍ من ملامح البناء وصفات القيادة النبوية في فصل (انتشار النور) وهو نور الإسلام الذي أذن الله ببزوغ شمسه على يد خير أنبيائه وصفوته من خلقه ﷺ.

الفصل الثالث

انتشار النّور

﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨ ﴾

(الصف : 8)

المبحث الأول: الحاكم ومؤسس الدولة

كانت أرض قباء أول أرض تشرفت بالإقامة المحمدية فيها وامتد ذلك الشرف ليجعلها أول أرض يُقام عليها أول مسجد بأيدي المسلمين بعد البعثة النبوية وشرفه الله تعالى بمدحه في آيات الذكر: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ التوبة: 108-109.

نزل بها الرسول ﷺ ليالي قليلة مع بدء وصوله لأطراف يثرب التي سماها المدينة، إذ لم يدع تلك الليالي تمر بلا عمل مهم يجتمع المسلمون معاً في أدائه مع بدايات لقائهم واجتماعهم مهاجرين وأنصاراً، فكان بناء هذا المسجد الشريف تأكيداً لأهمية دور المسجد في حياة الأمة، وترسيخاً لأثره القوي في النفوس وتآلفها، وصحبة المسلمين وتماسكهم، وفي القيادة والتنظيم والتشاور، وإعلاناً لاستعادة الحرية في ممارسة الشعائر الإسلامية بعد حرب طويلة ومنع.

ثم خرج قاصداً وسط المدينة والأنصار خلفه ما بين ماشٍ وراكبٍ، وكلّ منهم يريد أن ينزل رسول الله ﷺ عنده، لكنه كان يقول لمن يأخذ بزمام ناقته ليوقفها أمام بيته: (دعوها فإنها مأمورة)[1] توكلاً منه على الله، وإيماناً ورضى مع ترك

(1) ابن هشام 495/1.

الاختيار له سبحانه. إلى أن بركت أمام دار أبي أيوب الأنصاري، فنزل رسول الله ﷺ عنده، وأعظم بفرحة أبي أيوب واللهُ يختار داره لتكون محل استضافة النبي ﷺ! ثم اشترى الحبيب الأرض التي بركت فيها الناقة، وكانت مربداً لغلامين يتيمين، ورفض أن يأخذها بلا ثمن، وبنى فيها المسجد النبوي الذي صار واحداً من ثلاثة مساجد تشد إليها الرحال، وقد شارك ﷺ في بنائه ولم يدع العمل لأصحابه وحدهم، فهو دوماً نعم المشارك ونعم المعين، هو القدوة العاملة، والقدوة الصامتة، والقدوة الناطقة.

وكانوا يرتجزون وهم يبنون قائلين:

لئن قعدنا والنبي يعمل ** لذاك منا العمل المضلل

وأحياناً يقولون:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ** فارحم الأنصار والمهاجرة[2]

وبُني المسجد الشريف، حيطانه لبنٌ وطين، وسقفه جريد نخل، وعمده الجذوع، وأرضه رمالٌ وحصباء، وإلى جانبه بنيت الحجرات، وعند انتهاء بنائها انتقل إليها من دار أبي أيوب ﷺ. وكان حريصاً على ابتناء المساجد والحث على الاجتماع فيها، فهي مدارس ومحاضن تربية، ومراكز تطهير نفسي وسمو روحي، وهي أساس بناء العلاقات الاجتماعية وتقويتها باللقاء اليومي المتكرر وسقوط الفوارق الدنيوية تحت مظلة العدل والمساواة المطلقة، والاشتراك في العبادة للواحد الأحد.

(2) ابن هشام 1/ 496.

وهكذا بدأ الحاكم إرساء أسس دولته، وإقامة أول أعمدتها، فبنى المساجد، وآخى بين مواطني الدولة مهاجرين وأنصاراً إخاءً معنوياً تمهيدياً حين ألف بينهم في العمل، ثم بدأ نوعاً فريداً من المؤاخاة قائماً على العهد والمواساة والإرث[3]. وسارع الأنصار لخدمة المهاجرين والتفاني في عونهم.

لم يكن الأنصار ذوي مال وافر، فقد كان اليهود قد تسلطوا عليهم في المدينة، وسيطروا على اقتصادياتها، وأغنوا من أموالها وخيراتها على حساب أهلها، ونشطوا في بث الفتن بين أهل البلد لكيلا يتحدوا ضدهم، إلى أن ظهر مالك بن العجلان من بني الخزرج وكان قوياً حازماً، فأمّره الأوس والخزرج عليهم، فتصدى لليهود وقتل عدداً من زعمائهم، فخافوا منه، وسكتوا قليلاً لكنهم ظلوا يؤججون نار العداوات والحروب بين أهل يثرب بلا مبرر إلى أن أطفأها نور الله، ومع الوضع المادي المتدني لليثربيين إلا أنهم كانوا يتسابقون لاستقبال إخوانهم المهاجرين وإيوائهم في دورهم، ومقاسمة أموالهم، ويرونه مع ذلك قليلاً وبلغ من محبتهم وتجاذبهم للمهاجرين أن اضطروا إلى إجراء قرعة يكلون فيها الأمر لله ليختار لهم مَن ينزل عند مَن، ثم آخى الرسول ﷺ بينهم، فنزل في كل بيت من بيوت المدينة رجل من المهاجرين، وأحسن المضيف إكرام الضيف وزاد، ويرون أنهم مقصرون، وما لَهم من فضل لأنهم في ديارهم آمنون، أما هؤلاء فقد بذلوا وضحوا وكابدوا

(3) وبعد ذلك نسخ التوارث بين المتآخين من الصحابة كما جاء في آية الأحزاب: ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ۝٦ ﴾

الكثير من أجل دينهم الذين ينعمون هم فيه الآن بأمن وسكينة دون تضحيات.

ومما يروى من قصص التكافل والتراحم بينهم أن عبدالرحمن بن عوف نزل عند سعد ابن الربيع الذي بادر عبدَ الرحمن بالقول: إني أكثر الأنصار مالاً فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها تزوجتها. فقال عبدالرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلوني على السوق؟ فدلوه عليه فتاجر وربح، ولم يرضَ أن يأخذ من أخيه ما لَه[4]، ولم يثقل أحد منهم على أخيه الكريم، لكنه اعتمد على نفسه ومهارته في العمل، ولم يقبل أن ينفق عليه صاحبه أو يأخذ هو حق صاحبه، وهكذا بقية المهاجرين لم يأخذوا من إخوانهم إلا ما يسد حاجتهم ويقيم أودهم.

ومدح الله تعالى الفريقين بقوله: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩ ﴾ الحشر: 8-9.

وهكذا يكون التآلف والإيثار سبباً من أسباب قوة المجتمع وتماسكه فينعم بالأمن والطمأنينة والسلام، ويلتفت لما هو أكثر أهمية من خلافات شخصية أو

(4) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب قول الرجل لأخيه انظر أي زوجتي شئت حتى أنزل لك عنها، رقم 5128.

نزاعات قبلية، وأنى لهم العودة لمثلها وقد امتلأت القلوب بحب الله، وشعت بنور الله، وذاقت حلاوة الإيمان، وتحفزت الهمم للأعمال الجليلة ولم تعد كما كانت من قبل خاملةً لا هدف لها ولا حركة في التاريخ ولا مصير ولا مكانة.

وإنها لأخوةٌ إيمانيةٌ صادقةٌ فهي أخوةُ عقيدةٍ ساميةٍ لا أخوةُ عصبيةٍ كالتي كانت تربط العرب من قبل، وأنعم بأخوة المسلمين من أخوة!

وشعر اليهود المقيمون في المدينة أن أمرهم في خطر، فها هم العرب يتقوون بالنبي الجديد، وها هي آمالهم أن يكون منهم قد خابت، وها هي الدولة الجديدة تعلو شامخة يوماً فيوماً في معقلهم الآمن. وكان لا بد من أن يزيحوا هذه الدعوة الجديدة عن طريقهم، لكن ذلك لا يكون بالقوة ولا المواجهة العلنية، فعليهم إعداد أنفسهم، وتدبير كيدهم، وإحكام تخطيطهم للعمل السري من أجل النخر في المجتمع الجديد، والتقاط أي بوادر تمرد فردية واحتوائها وتنميتها لتكون واجهةً يعملون مِن خلفها، مع بذر بذور الخلاف والشقاق حين تسنح لهم الفرصة، وإلى أن يتم ذلك كله لا بد أن يحققوا مكاسب مهمة ويحظوا بهدنة تقيهم شر الخوف مما قد يحل بهم من الوافدين الجدد، فيحفظوا بذلك أنفسهم وأموالهم ومراكزهم.

وكان على مؤسس الدولة الجديدة أن يحدد أسس العلاقة بين مواطني المدينة كافة على اختلاف عقائدهم وأجناسهم، فقد كان في المدينة فئة من اليهود سبقت المسلمين في استيطانها، ولا بد من توضيح العلاقات بينهم وبين الدولة الجديدة ما داموا مقيمين في أحضانها بلا اعتداء على حقوقهم، أو إيصال أدنى مقدار من الأذى إليهم، وفي الخارج أمامهم قريش التي لن تسكت عما حصل، فكانت الصحيفة.. صحيفة الموادعة التي تؤسس للمجتمع الجديد بتشكيلاته

المتنوعة، والأخطار التي تهدده، والواجبات التي تنتظره، ويمكن أن تعتبر أقدم دستور دولة في التاريخ، نظم أمور الدولة، وقنن العلاقات الداخلية، وحدد معالم السياسة الخارجية، وضمن تعاون أهل البلد على أي عداء على أرضهم، كما ضمن الحرية المطلقة لكل فرد في عقيدته وعلى نفسه وماله.

وسارع اليهود إلى قبولها فهي تمنحهم ما كانوا يطمعون إليه من الهدنة إلى أن تنضج مكائدهم وتستكمل تخطيطاتهم، وهم يعرفون أن المسلمين والرسول ﷺ نفسه صادق أمين وفيّ لا يغدر، فقبلوا وأقروا بما فيها.

وكان من أهم بنودها[5]:

. المقدمة : هذا كتابٌ من محمد النبي رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس.

. وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيسة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعهم ولو كان ولد أحدهم.

. وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم.

. وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

. وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

. وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على

(5) للنص الكامل : انظر : ابن هشام 501/1 ـ 504 + البداية والنهاية ج3 والسيرة النبوية للندوي 488.

مَن حارب أهل هذه الصحيفة.

. وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.

. وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

. وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإنه لا تُجارُ قريشٌ ولا من نصرها.

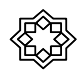
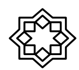
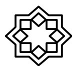
. وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردّه إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ.

. وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته (ثم عَدّد عشائر اليهود ولكل منهم الحقوق نفسها).

وبهذا تكامل بناء الدولة الجديدة، ونظمت العلاقات العقائدية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية داخليًّا وخارجيّاً، وكانت الحلةُ البهية التي برزت بها ملامح العلاقات هي العدالة والمساواة التامة بين المواطنين وكفالة حرية العقيدة، وأثبت الإسلام بالبرهان الناطق أنه الدين الوحيد الذي لا يؤذي مخالفيه في العقيدة، ولا يهضم حقوقهم، ولا يضارّهم، وأثبت أنه الدين الوحيد الصالح لتعايش المختلفين عرقياً وعقدياً بأمان تحت سيادته، ما دام لم يسئ إلى دولته، فعندها تتخذ الأمور اتجاه الحزم، أما عند الالتزام فالإسلام قمة العدل والوفاء، وليس مما قام على الإبادات أو التطهير العرقي أو الأرض المحروقة كما هو حال كثير من الدول والمدنيات الأخرى التي تسمى زوراً بالحضارات.

وقد اجتمعت في قائد دولة الإسلام صفات خَلقية وخُلقية ونفسية أهلته لضبط الدولة، وسياستها بالرفق والحزم حسب الحاجة، على هدى من الله وبصيرة

من الحق، مع الأخذ في الاعتبار سنن الحياة وأسباب الدنيا، وفيما يلي رحلة مع (القائد) الفذ.. رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

المبحث الثاني: القائـد

أصبح رسول الله ﷺ قائد المسلمين، فهو رئيس دولة الإسلام، وهو القائد الأعلى في الحروب التي خاضها المسلمون في العهد المدني من أجل نشر دعوة الإسلام وإيصالها للناس كافة، وإزاحة العوائق التي تحول دون انتشارها، أو تمنع الناس من قبولها، ولتأمين حدود الدولة الإسلامية من إغارة أعدائها وطمعهم فيها.

وقد أدار الدولة الإسلامية خيرَ إدارة، وظهر لنا جزء من ذلك في فصل سابق، كما أحسن قيادة الحرب، وعرف كيف ينظمها، وينسق أمورها، ويرتب إجراءاتها، ويكفل لجيشه الحماية وكذلك لمن يبقى من المسلمين في المدينة إذ كان يؤمر عليها أحد صحابته من ذوي الثقة والكفاءة وحسن تسيير الأمور وجودة التدبير في المواقف المفاجئة.

وحرص ﷺ على اتخاذ كل الأسباب التي تؤدي للنصر في المعارك، ويستفيد من كل ما ينفع في الحروب، ساعياً في ذلك لإعلاء كلمة الله، وتحقيق العزة لدولة الإسلام، ونشر رسالة الله في الأرض، ودعوة الناس إليها وإتاحة المجال لهم لأداء عباداتهم وليكونوا قدوةً يراها الجميع فيتأسّوا بها، ويقبلوا على دينها. فكان نعم الحاكم المدني والقائد العسكري، وهو إلى الآن عبقرية فذة في التاريخ نبعت وسط ظلمات الجاهلية، ونبتت في غياهب الأمية.

نحاول في هذه العجالة أن نبين بعض ملامح القيادة الناجحة في شخصية النبي ﷺ، وقد اخترت بعض المظاهر الواضحة في المجال العسكري أو الحربي كما

يمكن أن يسمى، والتي ظهرت في عدد من الغزوات، فجمعتُ بعض المواقف التي تمثل كلا منها كما يتبين في القضايا التالية:

1 . الشورى وطلب الرأي وموافقة الجماعة

فإن الشورى من مبادئ الإسلام الأصيلة، وهي مظهر جلي لتفاعل الشعوب مع القيادة، وانفتاح القيادة على الرأي والمشاورة، وإفساحها الصدر لتلقي كل الآراء والاستفادة من الخبرات المتعددة التي يملكها مجموع الشعب. وهي أمرٌ إلهي، وأساسٌ ربانيّ أصيل: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ آل عمران: 159.

وسنرى بإذن الله إشراقاتِ الرأي في مواقف متعددة، كما سنرى التطبيق العملي للشورى في أجلى الصور، حين خالف الرسول ﷺ رأيه . وكان الأكثر صواباً . ونزل عند رأي المسلمين لأنهم استقروا على ذاك الرأي، مع أن الشورى ليست ملزمة، فهي استنارةٌ بالآراء، وحشدٌ للخبرات، فإن خالفها فليس بملوم، لأن القرار النهائي له وفق علمه واستعداد دولته، لكن رسولنا ﷺ لم يخالف رغبة أصحابه، وتوكل على الله عاملاً بما يرضيهم.

▪ الموقف الأول: غزوة بدر

علم المسلمون بقافلة كبيرة لقريش ذاهبة إلى الشام ثم عائدة منها[6]، وكان القرشيون لم يكفّوا أيديهم عن المسلمين فما زالت بعوث منهم تُغير على المدينة فتحرق أراضي المسلمين، وتنهب مزارعهم، كما إنهم لم يرفعوا أذاهم عن التضييق

(6) انظر ابن هشام 606/1.

على المستضعفين الذين بقوا بين أظهرهم، وكانوا قد استولوا على بيوت المهاجرين وأموالهم كلها.

لذلك ندب الرسول ﷺ صحابته للخروج لاعتراض القافلة ومعاملة قريش بالمثل، وتعويض ما أحرقته أو صادرته من ممتلكات المسلمين، ومنعها من التزود بما يمكن أن يقوي شوكتها على الإسلام مستقبلاً، ولكن كان من حصافة الرأي وبعد النظر أنه يقدر الأمور، ويفتح مجال التخيل لكل الاحتمالات، وكان منها احتمال فوات القافلة أو وصول نجدة عاجلة لها، ومن ثم فقد يقع قتال بين الفريقين.

فأراد رسول الله ﷺ أن يأخذ موافقة أصحابه الذين سيخرجون معه قبل التحرك العملي، فلا بد أن يعلم الجند ما قد ينتظرهم ليكونوا على استعداد للقائه وحسن التصرف معه إن وقع، وليحظوا بالأجر على نية الخروج للقتال أو لغنائم القافلة، وعدم تفريقهم بين هذا أو ذاك اعتماداً على الله وتوكلاً عليه ورضا بما يختاره لهم.

لذلك نجد الرسول ﷺ وهو في جماعة من الأنصار والمهاجرين وهو يقول لهم: (أشيروا علي أيها الناس). رسولُ الله، مبعوثُ السماء، المؤيدُ بنصر الله وتوفيقه، الناطقُ بالوحي، المعصومُ من الزلل يطلب رأيَ صحبه ومشورتهم، فأي عظمة تلك يا رسول الله! وأي كمال بشري تهيأ لك! وأي إعداد ربانيّ حظيت به؟ وأي اندماج مع الشعب وتبسط معهم ذاك الذي أفرزه تواضعك الجمّ!

فقام أبو بكر وعمر والمقداد فقالوا وأحسنوا القول، وأبدوا الاستعداد للخروج والقتال مهما كانت التضحيات. لكن هؤلاء كانوا من المهاجرين، فعاد

رسول الله ﷺ يقول: (أشيروا علي أيها الناس)[7].

وكان يقصد الأنصار، فإن العهد الذي كان بينهم وبين الرسول ﷺ يقوم على نصرة أهل المدينة للرسول ﷺ والمسلمين داخل المدينة لا خارجها، وهم الآن في طريق الخروج منها وقد يلقون قتالاً خارجها، ولا بد أن يعرفوا الحقيقة ويتوقعوا الأمر، ويوافقوا على ذلك، فإن لم يوافقوا فذاك حقّ مضمون لهم بناء على ما تقدم من عهدٍ. لكن سعد بن معاذ فهم قصد الرسول ﷺفقام وقال ممثلاً عن قومه: قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، فامض يا رسولَ الله لما أردت ونحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلّف منا أحد. وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً، إنّا لَصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله[8].

ولم يخالف أحد من الأنصار رأيه، أو يعترض عليه، فضمن الرسول ﷺ موافقة الفريقين فاستبشر، وسُرَّ بما سمع، ومضى على بركة الله.

- **الموقف الثاني: في بدر أيضاً**

ولأن القيادة الإسلامية قيادة واعية لا تستكبر على الجند والعامة، ولا تكبتهم أو تحجر على آرائهم، فإن الحُباب بن المنذر لما رأى المكان الذي نزل به المسلمون في غزوة بدر رآه غيرَ صالحٍ لهم، وتأمل في جغرافية المنطقة فحدد ببعد

(7) ابن هشام 615/1.

(8) السابق 615/1.

نظره وسلامة عقليته الطريقةَ التي تجعل الأرضَ نفسها جندياً يقاتل في صف المسلمين، لذلك تقدم من تلقاء نفسه إلى قيادته وسأل: يا رسول الله، أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال ﷺ: (بل هو الرأي والحرب والمكيدة) فقال الجندي المخلص: (فقم يا رسول الله حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ونغوّر ما وراءه من الآبار، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون). فأشاد الرسول ﷺ بما قال: (لقد أشرت بالرأي[9]). ونقلوا الرأي إلى ميدان التطبيق العملي.

نعم... تقدم الجندي الصغير برأيه بين يدي رسول السماء، والتزم قمة الأدب مع الله ورسوله وعرض رأيه في ذاك النطاق، فليس ثمة ما يحول بين أي فردٍ منهم والوصول إلى قائده الأعلى، ثم هو لا يخاف ـ إن لم يلق رأيُه القبولَ ـ من أن يلحق به شيء من تبعة ذاك الرأي أو من أثر غضب القائد، فيفوت عليه حقّ له، أو ينالَ أذى في جسمه أو رزقه.وقبِل القائد الحكيم رأي جنده، وسارع إلى تنفيذه، ليحثّ كل مسلم على الإدلاء برأيه إن كان نافعاً، ويحض كل قائد على قبول الرأي، ويبث قبسا من نور أخلاقه بشعاع التواضع الذي يملأ نفسه الغنية بربها.

---

(9) السابق 620/1.

- **الموقف الثالث: أسرى بدر**

وفي غزوة بدر أيضاً موقف آخر من مواقف الاستشارة، فقد شاور أصحابه فيما يفعل بأسرى المشركين، فأشار أبوبكر بالعفو عنهم مقابل الفداء، وأشار عمر بقتلهم لأنهم من مجرمي الحرب بتعبيرنا الحديث، فأخذ النبي برأي أبي بكر رحمةً منه ورغبةً في إسلامهم، وقبِل الفداء، وجعل فداءَ مَن لا يملك فداءً أن يعلّم عشرةً من صبيان المسلمين القراءة والكتابة، ثم نزل الحكم الرباني ينهى عن اتخاذ الأسرى قبل الإثخان في الأرض، مع العفو عما حدث من قبول الفداء: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ الأنفال: 67-69. [10]

وأمر الرسول ﷺ بالإحسان إلى الأسرى فقال لصحبه: (استوصوا بالأسارى خيراً)[11] فكان أصحابه يقدمون الأسارى على أنفسهم في الطعام، ويكرمونهم، ويحسنون إليهم إلى أن يفتديهم أهلوهم، وكان الأسرى فيما بعد يحدثون عما لقوا من حسن معاملة من المسلمين حتى إنهم قالوا: (كانوا يحملوننا ويمشون)، وقال أبو عزيز أخو مصعب وكان مشركاً حينها: (ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها فأستحي، فأردها على أحدهم، فيرددها عليّ ما يمسّها)[12].

وليت شعري من يفعل هذا اليوم بأصدقائه فضلاً عن أن يفعله بأعدائه

(10) انظر الروض الأنف 3/ 133- 135.
(11) ابن هشام 1/ 645.
(12) ابن هشام 1/ 645.

بعد أن انتصر عليهم وتمكن من أمرهم، وهم الذين أذاقوه وصحبه مر العذاب من قبل؟

- **الموقف الرابع : في أحد**

عندما علم المسلمون بتجمع المشركين وخروجهم لحرب المسلمين في مدينتهم جمع أصحابه ليتشاوروا في الأمر: كيف يواجهون العدو؟ وكان رأيه ﷺ البقاء في المدينة لأنها (جُنَّة حصينة)، ولأن العدو إن دخل اشترك أهلها كلهم في ردّه والدفاع عنها، فتتاح فرصة المشاركة الجهادية للنساء والصبيان ومن فوق البيوت، حمايةً لأرضهم من عدوان المعتدين، وغزو الغزاة، وأطماع المحتلين، وليضربوا للعالم أمثلة الفداء وأرفع فنون المقاومة والدفاع عن الأرض.

ولكن المسلمين أرادوا الخروج للقاء الخصم قبل بلوغه ديارهم أنفةً من أن يدخل عليهم في عقر دارهم، وحرصا على الجهاد في سبيل الله في ميدان معركة ومواجهة مباشرة، وكان ذلك رأي أكثر المسلمين وأصرّ عليه كلُّ مَن لم يشارك في غزوة الفرقان (بدر) بالأمس.

فنزل ﷺ على رأيهم، واستجاب لإلحاحهم، ولم يصرّ على رأيه، وعندما تراجعوا عن إصرارهم أبى إلا متابعة المسير للخروج من المدينة والالتحام بالعدو خارجها نافياً جواز خلع لباس القتال عن النبي ﷺ قبل أن يقاتل[13].

- **الموقف الخامس : في الخندق**

(13) ابن هشام 63/2، وانظر المبحث الخاص بغزوة أحد في هذا الكتاب.

حرّض زعماء يهود بني النضير قريشاً وقبائل العرب من غطفان وبني مرة وبني فزارة وغيرها على حرب المسلمين، ووعدوهم أن يكونوا معهم وينصروهم، واتفقوا على مكان وزمان للقاء ثم مهاجمة المدينة للقضاء على المسلمين فيها، فوصلت أخبارُ إعداد الجموع وتحزب الأحزاب إلى المدينة، وعلموا أن عددهم يقترب من الآلاف العشرة تنوي استئصال المسلمين.

فجمع الرسول ﷺأصحابه وأخبرهم بما يُعَد لهم، وشاورهم فيه، فإذا بسلمان الفارسي يعرض فكرة جديدة تضمن للمسلمين ألا يفجأهم العدو في دارهم، بل يبقى بعيداً عنهم لا يدخل أرضهم، ويمكّن من تجنب القتال المباشر، وهي فكرة بناء خندق حول المدينة ليكون بينهم وبين أحزاب المشركين المتجمعة، فلا يخلصون إليهم، ولا يقاتلونهم، فقال: (إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا).

وكانت فكرةً صائبةً تقدم بها الجندي المؤمن إلى قيادته الحكيمة المتفاعلة فقدّم خبرته التي اكتسبها من بلاده وموطن نشأته، ورأى فيها القائدُ الرشيد سلاحاً يقيهم العدو، ويحقن الدماء، فكانت الموافقة على الاستفادة من معارف الشعوب وأفكارهم وتجاربهم، وكان انفتاحاً على النافع مما عند الآخرين وعدم التقوقع أو الانغلاق في إطار محدد بالبيئة التي يعرفون، بل هو الانفتاح على الحضارات وتلاقح الثقافات واقتباس محاسنها، وتعديلها بما يناسب بيئاتنا وعقائدنا إن اقتضى الأمر.

فاعتمد المسلمون فكرته وجعلوا جبل سلع خلفهم، وبدؤوا حفر الخندق في

الجهة التي يُمكن أن يؤتَوا منها وهي المنطقة الشمالية المقابلة لجبل سلع الذي جعلوه خلف ظهورهم، فهذه الجهة هي الوحيدة التي يمكن أن يدخل لهم العدو منها، إذ إن المدينة محمية حماية طبيعية بالحرّات وبمزارع النخيل والبساتين التي تجعل تقدم العدو صعبا من طريقها.

واختلف المسلمون مهاجرين وأنصاراً في نسبة سلمان إليهم، فكلهم يود أن يكون سلمان منه تقديراً لذوي الفضل، فجاء الشرف النبوي بقول المصطفى ﷺ : "سلمان منا آل البيت"[14].

2. الحس الأمني

على القائد أن يكون حصيفاً فطناً، ذا حس أمني، يستطلع أخبار عدوه قبل أن يفجأه بما لا يقدر على صده، ولا يعلن نواياه ولا استعداده العسكري، ويعمل على تضليل الأعداء قدر المستطاع، ويتخير ما ينفع جيشه في ميادين الحروب، فيحمي ظهره، ويؤمن له الانسحاب بعزة وحنكة إن جرت الأمور بعكس ما يشتهون. فمن تلك المواقف النبوية في هذا المجال:

- **الكتمان:** فلم يكن الرسول ﷺ يعلم أحداً بمقصده خشية وصول الأنباء للعدو.

. عندما أراد الرسول ﷺ الخروج لبدر لم يحدد هدفه بل قال: إن لنا طلبة،

(14) ابن هشام 2/ 224.

فمن كان له ظهرٌ[15] فليركب معنا.

. وفي أحد خرج ليلاً حيث الجو الهادئ ونوم الأعداء بعد مشقة السفر، ومر بطريق لا يمر بالقوم بل يخترق الأشجار والبساتين، فإن رآه الخصم لم يعرف عدده عدته بالضبط.

. وعندما خرج يريد أن يغزو بني لحيان الذين اعتدوا على أصحابه وخانوهم لم يعلن وجهته أو يحدد هدفه، لكنه ورّى عنه فأظهر أنه يريد الشام لينال من القوم غِرّة قبل أن يستعدوا له، وكانت منازلهم في أقصى الجنوب، فلم يتجه إليها مباشرة، بل اتجه بالجيش نحو الشمال، وأعلن أنه يريد الشام توريةً عن هدفه الأصلي، وتوغل جهة الشمال 20 ميلاً، ثم غير طريقه، وانحرف نحو الغرب ثم إلى الجنوب[16].

. وفي فتح مكة أيضاً أخفى غايته عن الجميع بما فيهم صاحب هجرته أبو بكر، وأزواجه، تجنباً لمعرفة القوم، وحقناً للدماء التي ستسال إن علمت قريش بقدومه عليها، وموّه على العدو تمويهاً رائعاً فبعث سرية من 8 رجال إلى بطن أضم في أول رمضان ليظن الظانّ أنه يتوجه إلى هناك، ولتذهب بذلك الأخبارُ[17] إلى قريش، فيما توجه هو ببقية الجيش نحو مكة في خفية من الأخبار المترصدة، وواصلت تلك السرية سيرها حتى وصلت حيثُما أُمِرت، فبلغها خروج المسلمين إلى مكة فسارت حتى لحقت بهم.

(15) من كانت عنده دابة تحمله.

(16) جاءت قصة غزوة بني لحيان في ابن هشام 2/ 280.

(17) الرحيق المختوم 365.

■ **احتياط وتأمين**

. وفي أحد جعل الجبل خلف ظهور المسلمين[18] ووجوههم إلى المدينة، والشمس في ظهورهم، وأقام الرماةَ على الجبل المقابل لأحد ليمنع التفاف المشركين حول المسلمين، فاختار بنفسه ميدان المعركة وجعله في صف المسلمين، وحدد مواضع القتال، وعين الثغرات التي يمكن أن ينفذ منها العدو فسدّها، وامتلك زمام الأمور في المعركة، وأجبر العدو على اختيار ما تبقى منها بعد أن اختار أفضل مواقعها، وترك العدو لاستقبال الشمس وبقية المواقع التي لا تناسب من يريد الانتصار، وقد كان هذا بفضل الدقة والإصرار على الهدف، وهو أيضاً ثمرة السرعة في العمل، وعدم التقاعس أمام العدو، بل يسبق إلى الميدان ويحدد مواقع القتال.

* كانت المدينة محاطة بالبساتين والجبال والنخيل من كل جانب إلا الشمال، فهي مأمونة إلا من هذه الجهة، التي يمكن أن يؤتوا منها، فحفروا الخندق فيها عندما سمعوا بقرب وصول الأحزاب إليها، وجعلوا جبل سلع خلفهم حماية لأظهرهم، ووضعوا النساء والأطفال في الحصون والآطام، وعملوا فيه ليل نهار تحسباً لوصول العدو في أي لحظة، ولم يتوانوا في عملهم لحظة من وقتهم.

والنتيجة: اضطر الخصم إلى فرض حصار على المدينة لم يكن مستعداً له ولا مؤهلاً للقيام به، وكان للخندق الفضل في رد المشركين إذ قالوا لما رأوْه: إن

(18) ابن هشام 65/2.

هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها[19]. ووقفوا حائرين فلا هم يقدرون على دخول المدينة ومهاجمة المسلمين، ولا هم بقادرين على فرض حصار طويل شامل على المدينة. وساعد بنو قريظة في الحصار فأمدوهم بالمؤن وهاجموا بعض بيوت المدينة، وتكالبت الخصوم من كل جهة، وكان الطرف الداخلي الخائن أشدّهم، واقتصر الأمر بين المسلمين وبين أحزاب المشركين المحدقة بشمال المدينة على مناوشات واقتحامِ أفرادٍ للخندق ردهم المسلمون أو قتلوهم، مع احتدام المراماة بالنبل من حول الخندق بين الفريقين، ثم كفى الله المؤمنين القتال بجندٍ من عنده فرق بها الأحزاب وأرعبهم فانكفؤوا بفضل الله خائبين.

. ومن الحس الأمني الاحتياطي أنه ﷺ في عمرة القضاء خرج وحمل معه الهدي، وحمل السلاح الكامل أيضاً حذراً من غدْر قريش وتحسباً لأي طارئ يعترضهم.

. ومنه كذلك الحرب النفسية التي اتبعها في حمراء الأسد بعد أحد حين أمر بإشعال النيران فكان عددها 500 نار تُشاهَد من بعيد، وتوهم الرائي أن عدد مشعليها كبير واستعدادهم قوي.

. وفعل الأمر نفسه في فتح مكة حيت أشعل كل فرد ناراً، فكان عددها عشرة آلاف نار[20].

- **استطلاع الأخبار:**

ولا يخفى دورها في تحقيق النصر بمعرفة جيش العدو واستحكاماته

(19) السابق 220/2.
(20) الرحيق المختوم 367.

واستعداداته ومقدارها، والوقوف على أهدافه ومقاصده، فتلك المعلومات كلها ـ مهما صغرت ـ تفيد في رسم الخطط التي يلقون بها عدوهم، وفي التجهز له بما يناسب قدراته وإمكاناته حسب الطاقة، وفي اتخاذ ما يلزم لصده ومجابهته وتحديد مكان اللقاء والتوزع فيه بما يناسب.

ـ ولم يكن الرسول ﷺ يعهد بالأمر إلى أصحابه ويكتفي بذلك دوماً، بل كان يقوم معهم بمثل هذه المهام، ويستطلع الأخبار بنفسه، فمن ذلك ما حدث في غزوة بدر حيث خرج الرسول ﷺ وأبو بكر قبل بدء الغزوة يستطلعان المنطقة التي يتوقع مرور القافلة فيها ويسألان عن أخبار قريش، وهل وصل وفدٌ لها؟ فلقيا شيخاً كبيراً فسألاه عن قريش وعن محمد وصحبه تمويها، فقال الرجل: لا أخبركما حتى تخبراني من أنتما؟ فقال الرسول ﷺ: (إن أخبرتنا اخبرناك) حيطةً واحتراساً، فأخبر الشيخُ عن مكان الفريقين وتوقعه لهما بعدما بلغه من أخبار عنهما، ثم عاد ليسأل: ممن أنتما؟ فقال الرسول ﷺ: (من ماء)[21]. وهو يقصد من جنس الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي، وظن الشيخ أنها قبيلة تسمى (ماء) وأخذ يحاول تذكرها، وكان ذلك تورية بمعاريض الكلام، خوفاً من وصول أخبار المسلمين إلى عدوهم.

ـ وبقي المسلمون يبحثون خلف قريش والقافلة ويسألون عن الأخبار، وكان أن وجدوا غلامين فجاؤوا بهما إلى معسكر المسلمين، فسألهم الرسول ﷺ عن

(21) ابن هشام 616/1.

عدة القوم، فلم يعرفوا، فسألهم: كم يذبحون كلّ يوم من الإبل؟ قالوا: ما بين التسعة والعشرة. فخمن ﷺ عدتهم وقال: إذن القوم ما بين التسعمئة والألف[22].

.كما بعث المسلمون بسيس بن عمرو وعدي بن الرغباء يتحسسان أخبار العدو ويرقبان تحركاته فنزلا يسقيان من ماء في الطريق فسمعا جاريتين تتحدثان بقدوم العير في الغد أو بعده، فعلما الموعد[23]، ولكن شاء الله ألا تكون للمسلمين القافلة، بل أراد لهم النصر والعز، لذلك عرف أبو سفيان أن الرجلين اللذين سألا عن القافلة إنما هما من المسلمين فسارع إلى تغيير طريقها وبذا نجت العير بكل ما فيها.

. وكان العباس عم رسول الله ﷺ في مكة يعرف أخبار قريش فيرسل بها إلى المدينة ليستعد أهلها لما يُدبَّر ضدهم. فبعد خروج جيش المشركين في غزوة أحد أرسل رسالة عاجلة بلغها رسوله إلى المدينة في ثلاثة أيام، وكان فيها أخبار الاستعدادات العسكرية بدقة بالغة: (إن قريشاً قد أجمعت المسير إليك فما كنت صانعاً إذا حلّوا بك فاصنعه، وقد توجهوا إليك وهم ثلاثة آلاف، وقادوا مئتي فرس، وفيهم سبعمئة دارع، وثلاثمئة بعير، وأوعبوا من السلاح)

رسالة خطيرة، وأخبار رهيبة، وصاحبها ثقة مأمون إلا أن القيادة لا بد أن تتأكد من كل أمر، وتحذر من ازدياد العدد في الطريق بمحالفات خارجية مثلاً، لذا لم يكتف الرسول ﷺ بها بل أرسل الحباب بن المنذر ليتأكد من أخبار قريش،

(22) السابق 617/1.

(23) السابق: نفسه.

فذهب يستطلع أمرها وعاد بأخبار مماثلة يؤكد تجهيزهم وبأرقام قريبة مما ورد في الرسالة.

. وبعد أحد أرسل ليتأكد من خبر جيش الكفار، أراجع إلى مكة هو، أم باق ليعاود الهجوم على المدينة بعد أن لم يستطع عقب المعركة مباشرة؟ فأكد الرسول المستطلعُ للخبر أن أبا سفيان لامَ قومه على العودة دون أن يستأصلوا المسلمين ويسبوا نساءهم، وأنه أصر على البقاء ولم يعد إلى مكة، فنادى منادي الرسول ﷺ في المدينة بالخروج إلى حمراء الأسد، وهذا وعيٌ قياديّ واحتياط رشيد، فلم تنته الإخباريات مع انتهاء المعركة، بل لا بد من استطلاع أخبار العدو في كل وقت تحسباً لمباغتته، واستعداداً لملاقاته.

. أوصلت الاستخبارات الإسلامية إلى المدينة أخبار تجمع الأحزاب من قبائل العرب كلها وفي مقدمتها قريش، وأوصلت بدقة حجم القوات المهاجمة واستعداداتها وأعدادها التي بلغت 10 آلاف وهو رقم يكاد يفوق عددَ سكان المدينة كاملة، وأكدت إصرارهم على اقتحام المدينة وإبادة المسلمين منها، مما جعل الرسول ﷺ يعرض الأمر للشورى، ويتفق مع جيشه في أساليب المقاومة.

. أحرم الرسول ﷺ وأصحابه بالعمرة 6 هـ وخرجوا يسوقون الهدْي ليعرف الناس أنهم يريدون عمرة لا قتالاً، وقبل وصولهم إلى مكة أرسل عيناً له من قبيلة خزاعة هو بشر بن سفيان ليرى ما خبر قريش وما رد فعلها بعد علمها بقرب المسلمين منهم يريدون الاعتمار، فعاد العين قائلاً: (إن قريش قد جمعت لك جموعاً وجمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ومانعوك) فعرف نيتهم وتصرف على أساس ذاك العلم وشاور أصحابه فيما يرون، فقالوا: لم نأت

لقتال، لكنا نريد الاعتمار.

. وفي غزوة خيبر بعث عباد بن بشر في سرية استطلاعية ليلتقط أخبار العدو، ويتعرف على أساليبه، ويبحث عن كمائنه إن كان قد أعدّ شيئاً منها، فلقي عبّاد في طريقه عيناً لليهود فسأله عن خيبر وأهلها فحدثه أنهم اتفقوا مع غطفان على أن يعطوهم ثمار خيبر عاماً كاملاً مقابل أن يعينوهم ويكونوا معهم فيتقووا بهم، وقد وافقت غطفان فأمدتهم بالرجال والزاد، وانضمت إليهم في حصونهم ومعهم ما يكفيهم لسنين عديدة.

وهذا من الحرب النفسية التي لجأ إليها العدو لتخذيل المسلمين عنهم إذا علموا ألا فائدة من حصارهم أو قتالهم، ولكن عَبّاداً أدرك حقيقة الرجل الذي يحدثه فعلاه بالسوط فضربه عدة ضربات مهدداً: ما أنت إلا عينٌ لهم، اصدقني وإلا ضربت عنقك. فنطق بالحق قائلاً: القوم مرعوبون منكم، خائفون وجلون لما صنعتم بمن كان بيثرب من اليهود. ثم دلهم على طريقة لإضعاف القوم.

. ولم يقتصر جمع الأخبار على إرسال العيون إلى الخارج للبحث والاستطلاع، بل كان يجري أحياناً بطريقة عفوية دون أن يظهر منها أنهم يريدون أخباراً ما، ودون أن يذهب بعضهم لطلبها من العدو وفي قربه، كالذي حدث في تبوك حين استفاد من الوافدين إلى المدينة من الأنباط الذين يأتون بالزيت من الشام، فكانوا يتحدثون بأخبار الرومان وحشودهم، وانضمام نصارى العرب إليهم استعدادا لغزو المسلمين.

. ولقد جمعت أشراف قبائل هوازن وثقيف جموعها إثر فتح مكة الذي أوغر الصدور وأخرج الأحقاد واستثار الضغائن، نقلت الأخبار مسير العدو فبعث

الرسول ﷺ أبا حدرد الأسلمي، وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم، ثم يأتيه بخبرهم، ففعل، ودخل بينهم، وطاف بمعسكرهم يتحسس أخبارهم ويتعرف خططهم ثم جاء بخبرهم، فعلم المسلمون بنيتهم واستعدوا للقتال، واستعاروا السلاح، وحشدوا بدورهم للجموع المحشودة لهم.

3 . التقدم بنفسه:

هو سيد الخلق، وشفيع القوم، أعلاهم نسباً، وأكملهم خلقاً، المناجى بالليل والنهار، الصاعد إلى السماء، المطهر بتربية الخالق الوهاب، لكنه ليس مستكبراً بعلمه، ولا مترفعاً بمنزلته، ولا ثانياً عطفه، ولا طاوياً كشحه، هو في كل شؤون الحياة مع أصحابه كأنه فرد منهم، بل هو أكثرهم تواضعاً وتعرضاً لمصاعب الحياة، كان يجلس كما يجلس العبد، ويأكل كما يأكل العبد، في الهيجا هو السّبّاق، وفي شظف العيش هو المثل الذي ليس دونَه مثل، وهذه لقطات سريعة لهذه الصفة العظيمة التي جعلته واحداً من القوم، وصار بها ألصق بنفوسهم من أهليهم وأبنائهم:

- في يوم بدر كان عند المسلمين سبعون بعيراً يتعاقبون ركوبها، كل ثلاثة منهم يتناوبون المشي والركوب على بعير واحد، وكان الرسول ﷺ مع علي بن أبي طالب وأبي لبابة، فلما جاء دوره في المشي قالا له: نحن نمشي عنك. فقال : ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما.

- حين وافق المسلمون على فكرة تحصين المدينة بحفر الخندق من الجهة التي يخشى منها من إغارة العدو تقدم رسول الله ﷺ بنفسه، وعمل مع أصحابه،

فكان يحفر معهم وينقل التراب فيتساقط عليه ويتغير لون جسمه وملبسه من أثره دون أن يضيق أو يتأفف أو يضنّ بنفسه على هذا العمل المضني، أو يترك صحبه وحدهم في عملهم المتعب في الجو القارس البرودة، وخطرُ مباغتة العدو لهم يتهددهم في أي لحظة. لا، إنه معهم، بل هو أولهم، وأكثرهم عملاً، وليس من ذوي المظاهر وادعاء العمل بلا عمل حقيقي.

يقول البراء ﷺ: (لما كان يوم الأحزاب وخندَقَ رسول الله ﷺ، رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني التراب جلدة بطنه وكان كثير الشعر)[24]. وكان عليه السلام يشاركهم رجزهم وهم يعملون يخففون عن أنفسهم عناء العمل، ويتواصلون بالصوت الهادئ واللحن المحبّب والعاطفة الصادقة والمعنى الراقي فكانوا يقولون:

نحن الذي بايعوا محمدا ** على الإسلام ما بقينا أبدا.

وكانوا أحيانا يقولون:

والله لولا الله ما اهتدينا ** ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ** وثبت الأقدام إن لاقينا

وكان ﷺ يردد معهم الكلمة الأخيرة من كل بيت.

۞ وكان معهم في المعارك، يقاتل ويوجّه، فيتذوق حلاوة النصر ويتجرع مرارة الهزيمة، وفي أحد التي نال فيها المسلمون درساً قاسياً حين غلبهم العدو في نهايتها وأوقعوا منهم كثيراً من الأخيار نالت الرسول ﷺ جراحاتٌ شتى، فكسرت

(24) انظر صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، حديث رقم 4156.

رباعيته، وشج وجهه، ودخلت حلقات من المغفر في خده، ونزف كثيراً حتى ما كان الدم يقف عنه، ولم يستطع أن يرقى صخرة ليشرف منها فيرى ما يحل بالمقاتلين بعد ذلك إلى أن رفعه أبو طلحة فأجلسه عليها. لم يكن يحجز نفسه عما يواجهه أصحابه، ولا كان يختبئ ويتركهم يقاتلون وحدهم، بل هو القائدُ وأولُ مقاتلٍ وأولُ جريحٍ، يصيبه ما يصيبهم، ويناله من الأذى مثل ما ينالهم.

۞ بعد الهزيمة في أحد وصل الرسول ﷺ مصاباً إلى شعب في الجبل فأدركه أبيّ بن خلف يريد قتله وهو يصيح: لا نجوتُ إن نجا. واستمر يتقدم قاصداً الشخص النبوي فلم يتركه لأصحابه بل دافع عن نفسه بنفسه، وأخذ حربةً من يد صاحبه واستقبل بها أُبياً فدفعها في عنقه فمات من أثرها قبل عودة المشركين إلى مكة، وكان هو الرجل الوحيد الذي قتله الرسول ﷺ بيده طوال حياته[25].

۞ كانوا فقراء وكان أفقرهم، كانوا جوعى وكان أشدهم جوعاً، لم يشبع ﷺ ثلاثة أيام تباعاً من خبز حتى لقي ربه، وكان ذووه يمكثون الهلال والهلالين والثلاثة ما يوقدون في بيوتهم ناراً مكتفين بالتمر والماء. وكان المسلمون أيام حفر الخندق لا يذوقون طعاماً ثلاثة أيام متتالية، وكان الواحد منهم يربط على بطنه حجراً من شدة الجوع، وكان هو يربط حجرين، فكان بذلك أولهم في التحمل والمعاناة وشدة المكابدة، يذوق آلام الدنيا كما يذوقون، وليس مرفهاً أو مستريحاً وهم تعِبون، فكوْنه رسولاً لا يمنحه امتيازاً عنهم ليجهدوا ويرتاح هو، ولا يعطيه استثناء من المشاركة والعمل، بل هو القدوةُ المتكاملةُ التي تطبق ما تعلّمهم من

(25) أصل قصة قتل الرسول ﷺ لأبي وردت في ابن هشام 84/2.

مبادئ وعلى رأسها المساواة والعدل والبذل، وتنفي هذه المواقف العظيمة أي ادعاء لطلب زعامة أو ملك أو مال، فما أولئك الطالبون بمن يتحمل هذه المشقات أو ينزل إلى ساح المعترك بنفسه.

حقاً.. كان ﷺ فقيراً، ولكن لا عن حاجة لا سيما بعد أن فتحت عليه الدنيا فكانت الأموال تأتيه وتصبّ بين يديه، فيقسمها ولا يبقي منها شيئاً، حتى إنه أُتي يوماً بتسعين ألفاً فوضعها على حصير وفرّقها في الناس وما قام حتى فرغ منها ولم يأخذ لنفسه أو أهله شيئاً. كان فقراً مع قدرة، وزهداً مع استطاعة، وتزكيةً للنفس عن صغائر الدنيا التي لو لم يكن من مساوئها إلا تقسية القلب لكفى بالعاقل أن ينبذها.

وتغنى الشاعر بفضل رسول الله ﷺ وتعففه في الدنيا، وما له في الآخرة من علو المكانة، وسامي المنزلة، فقال:

يا مَن له عزّ الشفاعة وحدَه ** وهو المنزهُ، ما له شفعاءُ
عرشُ القيامة أنت تحت لوائه ** والحوضُ أنت حياله السقاءُ
تروي وتسقي الصالحين ثوابهم ** والصالحات ذخائر وجزاء
ألمثل هذا ذقت في الدنيا الطوى ** وانشق من خَلَقٍ عليك رداءُ؟[26]

4. الدعاء

والقائد الفذ يستكمل احتياطاته، ويعد جنده، ويطهر قلوبهم مما يشوبها

(26) الأعمال الشعرية الكاملة. أحمد شوقي. 41.

ويضعفها، ثم هو لا يثق بكل ذلك ولا يتّكل عليه، ولا يتوهمه سبباً للنصرة، فلا بد أن يتصلَ بقيادته العليا التي بيدّها كل شيء، والتي بيدها النصر، فهو ﷺ لم يغفل عن ربه، ولم يجعل أسباب الدنيا تأخذه عن اللجوء إلى مالك النصر الأوحد، وهكذا ينبغي أن يكون كلُّ قائدٍ، وأن تكون كلُّ حربٍ.

۞ في غزوة بدر دخل الرسول ﷺ العريشَ الذي نصبه المسلمون لقيادته بعد أن استكمل التجهيز للمعركة، وأخذ يناجي ربّه ويدعوه ويستمطر النصر: (اللهم أنجز لي ما وعدت.. اللهم نصرك. اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد بعدَها في الأرض) وظل يدعو ويبتهل ملحاً في طلب النصرة حتى سقط رداؤه عن منكبيه وهو رافعٌ يديه إلى السماء مستغرق في الدعاء بقلبه وكيانه.

۞ في الأيام الحالكة التي حوصر فيها المسلمون من الأحزاب خارج المدينة، ومن تربص اليهود الخائنين داخلها لم يكن الرسول ﷺ يفتر طيلة هذه الليالي والأيام عن الدعاء والاستغاثة والتضرع إلى الله وطلب النصر للمسلمين، وكان من دعائه في ذلك: "اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم"[27]

۞ وعند توجهه ﷺ إلى مكة ينوي فتحَها بعد أن اتخذ الأسباب كافة، واحتاط أمنياً من أيّ ثغرة ضعفٍ في استعداده، فأخفى هدفه، وأعدّ جنده، وبعث عينه فتوجه إلى ربه تعالى بالدعاء يرجوه: (اللهم خذ عنّا أسماعهم وأبصارهم، فلا يرونا إلا بغتة، ولا يسمعوا بنا إلا فجأة).

۞ عندما وصل جيش المسلمين إلى مشارف خيبر قال رسول الله ﷺ

(27) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، حديث رقم 4165.

لأصحابه: قفوا. فوقفوا، فأخذ يدعو الله ويثني عليه: "اللهم رب السماوات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها، اقدموا باسم الله" ولم يكن هذا الدعاء خاصاً بخيبر فقط، فقد كان يقوله لكل قرية يدخلها[28].

۞ وفي مؤتة ودع الرسول ﷺ والمسلمون الجيش المتوجه إلى مؤتة وهم يرفعون أكف الضراعة لله أن ينصر إخوانهم المجاهدين، وكان وداعهم لهم هو نفسه دعاءً بقولهم: دفع الله عنكم، وردكم صالحين غانمين.

۞ لم يقتصر الدعاء على طلب النصرة، ولا الثناء على النصر فقط، ففي غزوة أحد التي قُتل فيها جمعٌ من المسلمين، وأصيب فيها الرسولُ ﷺ، صلّى بأصحابه الظهر بعد انتهاء المعركة، وهو قاعد لما به من جراح ونزف، وبعد الصلاة توجه إلى الله بالدعاء والثناء وقال لأصحابه: استووا حتى أثني على ربي عز وجل. فاصطفوا خلفه وأخذ يدعو: (اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضللت، ولا مضل لما هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت،ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعد لما قربت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك النعيم يوم الغلبة، والأمن يوم الخوف، اللهم عائذ بك من شر ما أعطيتنا، وشر ما منعت، اللهم حبّبْ إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين، اللهم توفّنا

---

(28) ابن هشام 329/2.

مسلمين وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا نادمين ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الخلق)

5. الثبات

قد يبذل الداعية كثيراً من وقته وجهده، ويقدم القائد كل حنكته وخبرته، لكن إن لم يكن ثباتٌ ففي ذلك العمل نقصٌ كبيرٌ، وهو كلّه معرض للإخفاق. ولقد ضرب رسولُنا صلوات الله وسلامه عليه أمثلةً رائعةً في الثبات والاستبسال في الجهاد، وأمامَ المصائب أيا كان نوعها، ونتوقف ها هنا عند ثلاثة مواقف بارزة في أحد والخندق وحُنين:

۞ فأما أحد فقد بدأت بانتصارِ المسلمين، وانتهت بانقلابٍ عليهم إثر فقدان السيطرة على أرض المعركة وتحوّل القيادة إلى العدو، وإطلاقه سلاحه بين المسلمين بسخاء، فوقعوا في حيرة واضطراب، وفرّ بعضهم من هول الموقف، والنبال تتساقط عليهم كالمطر، ورمى آخرون السلاح ووقفوا ذاهلين في أرض المعركة، أما رسولُ الله ﷺ فقد ثبت ثباتاً لا مثالَ له، وهو قائدٌ أعلى للجيش وللدولة الإسلامية كلها إلا أن ذلك لم يدفعه للحرصِ على حياته وتركِ جيشه في حالة الرعب والفزع التي يمرّ بها، والتي قد تستأصله أو تبث فيه الرعب أبداً، فلم يفر، بل جعل همه هو استعادة المسلمين من صدمة الموقف، وتثبيتهم في ميدان القتال تثبيتاً لقلوبهم في أي مواقف مشابهة، فوقف يناديهم إليه، ولم يخش أن يسمعه العدو فيأتي إليه ويقتله. وخلصت له جراحات أدمته، وأقعدته حتى رفعه طلحة وعلي بن أبي طالب، وبلغ من شدة جراحه أن صلى بالمسلمين بعد المعركة

قاعداً، وصلّوا هم خلفه قاعدين[29]. وحدّثَ القرآن أخبار الفارين المضطربين، وثبات النبي العظيم: ﴿ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣ ﴾ آل عمران: 153.

۞ وأما الخندق فقد حوصر المسلمون فيها من كل الجهات، فمن الخارج من الشمال تحديدا تحدق بهم جموع الأحزاب البالغة عشرة آلاف، مدججين بالسلاح، وأما من الداخل فقد نقض اليهود عهدهم مع المسلمين، وتحرّشوا بهم، وأباحوا المدينة للعدو من جهتهم، كما تراجع المنافقون عن مواجهة العدو، وبثوا الإشاعات والأراجيف في المدينة، فأضحى المسلمون محاصرين من الشمال ومن الجنوب، وكانت كتائب العدو تشن حملات متتابعة تحاول اختراق الخندق، والعبور إلى المسلمين، فكان المسلمون يتصدون لها لتفريقها، ولم تكف النبال عن الانطلاق من جهة المشركين إلى المسلمين، وكان المرء منهم لا يأمن أن يقوم من مكانه لشدة الحصار، ووصف الله تعالى حالهم ذاك بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ

(29) (صلاة الرسول قاعدا) ابن هشام 87/2.

زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ١١ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ١٢ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ١٣ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ١٤﴾ الأحزاب: 9-14.

ولكن رسول الله ﷺ ثبت معهم ثباتَ الأبطال، وكان يطمئنهم بالدعاء المتواصل استغاثةً بالله بعد استكمال أسباب الأرض، وسد المنافذ على العدو، وكان يبث الحماسة في نفوسهم، ويرتجز معهم، وقد هيأ للأمر قبل اجتماع الأحزاب حين زفّ إليهم قافلة بشائر متتابعة حين اعترضتهم في حفر الخندق صخرةٌ لم يقدروا عليها، فأخبروا الرسول ﷺ فجاء، وحمل المعول يضربها مسمّياً بالله، فلما ضربها أول ضربةٍ كسرَ ثلثها فصاح: (الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام)، وضرب ضربةً ثانيةً فكسر جزءاً ثانياً وصاح: (الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصرَ المدائن الأبيض) ثم ضرب الثالثة فحطمها وقال: (الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة)[30]. فلم يكف ﷺ عن بث الأمل في نفوس صحبه تثبيتاً لهم وتبشيراً بشائر عظمى في وقت لا يأمنون فيه على أنفسهم بحركة يتحركونها في أرضهم. فسبحان الله الذي علم رسولَه فكان صاحبَ الإيمان الأكمل واليقين الأتم.

۞ وفي حنين، تكرر مشهدٌ قديمٌ من غزوة أحد، فقد تقدم المسلمون من

(30) جاء أصل القصة في ابن هشام 2/ 219.

وادي حنين وقد أعجبتهم كثرتهم البالغة اثني عشر ألفاً، فقالوا بفخر وخيلاء: لن نهزمَ اليوم من قلة. فلم تغن عنهم كثرتهم من الله شيئاً، فما كادوا يلجون الوادي حتى تتابعت عليهم السهام، ونشبت في وجوههم كمائن العدو فانقلبوا وتفرقوا، أما رسول الله فقد وقف يناديهم، وركب بغلته يدور عليها وسط الميدان أمام العدو وهو ينادي: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب[31].

وأوصى عمه العباس ذا الصوت الجهوري أن يناديهم مذكراً بأيامهم، فنادى: يا معشر الأنصار، ثم نادى: يا أصحاب الشجرة.. يا أهل بيعة الرضوان. فاستنقذهم من هول الحدث، وأعادهم لشرف الموقف، فاستعادوا وعيهم الذاهب إثر الهزيمة التأديبية، وعادوا إلى الميدان لا يتأخرون، وكان من عَجَز منهم عن أن ينعطف بفرسه وسط الجموع الكبيرة، نزل عنه حاملاً سلاحه، وولّى وجهه جهة الصوت يلبي النداء. فبارك الله في الاستجابة السريعة ورزقهم النصر على عدوهم، بعد درس تأديبيّ مباشرٍ إثر لحظة غفلت فيها القلوب عن واهب النصر بلا أسباب إن شاء، فعلّمهم أن استبعادَهم الهزيمةَ عن قلة لا يناسب تفكير المسلمين، لا سيما وهم قد جربوا من قبل وعرفوا.

(31) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب قول الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ ...﴾ حديث 4360 و 4361.

المبحث الثالث: العزة

كانت روائح العزة الندية تفوح من أعمال النبي ﷺ وأقواله كلها، وأضحت اليوم أكثر ما نفقد بعد أن هوينا إلى قاع الذل، وما زلنا نهوي من قاع إلى قاع، وفي كل مرة نظن أننا قد وصلنا آخر قاع والله المستعان.

والعزةُ ملمحٌ من ملامح القيادة النبوية التي تغرس هذه الروح الأبية في النفوس، لكنها لمكانتها تستحق أن تنفردَ بمبحث خاص.

العزة.. هي رفعتُك وإن كنت وضيعاً، وهي سلاحُك وإن كنت أعزلَ، وهي حياتُك، ورأسُك المرفوع وقامتك الشامخة، هي همتُك وهي دواءُ قلبِك الموجوع، هي صبرُك وأنت في أيدي الأعداء، وهي نصرُك وأنت في ميدان القتال. قد اشتقنا إلى عبيرها الزاكي وها نحن نطمحُ أن يداعبَ أنوفَنا شيءٌ من أريجها النبوي الفواح.

۞ عند تكالب الأحزاب على المسلمين في المدينة، وخيانة اليهود من داخلها، ضاق الأمر بالمسلمين وبلغ بهم الخوف والترقب مبلغاً كبيراً، ففكر الرسول ﷺ في التخفيف من حدة الحصار الذي كان يشغل المسلمين عن صلاتهم أحياناً عندما تغير عليهم الكتائب المهاجمة وقت الصلوات فيضطرون لصدها عن المدينة وتفوتهم الفريضة، وكانت الطريقة التي يمكن أن يضمن بها التخفيف من هذا الحصار هي عقدُ صلح مع بعض جماعات الأحزاب لتحييدهم، أو إقناعهم بالانسحاب النهائي من الحصار، واختار غطفان ليعرض عليها ثلث ثمار المدينة كلها، فهي لم تخرج حميةً ولا عقيدةً ولا حقداً وغيظاً، إنما طمعت في الغنيمة التي

ستكون من نصيبهم لو دخلوا المدينة، وها هي تأتيهم غنيمة باردة لا يبذلون فيها شيئاً، لكنه ﷺ كعادته لا بد أن يشاور أصحابه، ولا يقضي بأمر دونهم، فشاورهم، فسألوه: يا رسول الله، أأمراً تحبه فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ فقال: (بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما).

فكان ردُّ العزة: يا رسولَ الله، قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة إلا قرى أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.[32]

الله أكبر... رد مَن اعتز بالإسلام وآمن أنه يزيده قوةً وعزّاً ولا يدفعه إلى الخور والهوان. فاستجاب الرسول ﷺ لهذه العزة الإسلامية، وقدّر مكانة أصحاب الرأي، وأكرم منزلتهم إذ أثبتوا قدرةً عاليةً على الثبات في المواقف الحرجة، مع الصبر وقوة الإرادة، والجَلَد على المصائب، والتصميم على الظهور على العدو وقهره مهما كثر عدده وعتاده.

۞ وبعد أن فرّق الله شمل الأحزاب، وبدّد جمعهم، ونصر عباده المخلصين، كان لا بد من تأديب الخائنين تأديباً يوافق خيانتهم للدولة، ونقضهم

(32) ابن هشام 223/2.

للعهد، وإعانتهم العدو، وكشفهم عورات المدينة وإرشاد الغازين إليها، وهذا كله وأكثر منه قد فعلته بنو قريظة اليهود الذين سمح لهم المسلمون بالبقاء في أرض المدينة، وعقدوا معهم الصلح الذي يتعهدون فيه بحماية الأرض من أعدائها، وعدم عونهم عليها، وهذا واجب على أهل كل بلد نحو بلادهم مهما كانت عقائدهم، إلا أن بني قريظة قد استضافوا رؤوس الأحزاب، وأكرموهم، وأدخلوهم حصونهم، ودلوهم على مواضع الضعف في مداخلها ومخارجها، ثم اعتدوا على حرمات المسلمين في الحصون حيث النساء والأطفال العزل من السلاح المتفردون بلا رجال، لأن رجالهم في مواجهة الأحزاب المتكالبة على أطراف المدينة، وبهذا فقد عرّضوا المدينة كلها للاحتلال، وأموالَها للاغتصاب، وحرماتها للانتهاك، ونساءها للسبي والإذلال، وأطفالها للقتل أو التشريد، وأرواح رجالها للقتل يقيناً، ولا بد من إيقاع العقاب على جملة الجرائم الكبيرة هذه، فلو تركوا وشأنهم لهانت هيبة المسلمين، وسهلت أرضهم لكل غازٍ، وطمعت نفوسُ هؤلاء وغيرهم في المدينة، ولهذا لا بد أن يكون الحزم هو سيد الموقف، لئلا تكون سُنة لكلّ من كره حاكمَ بلاده بأن يستعين عليه بمَن هم من خارجها متغاضيا عن مطامعه في الأرض ومصالحه في ثرواتها.

وكلف رسول الله ﷺ سعد بن معاذ[33] مسؤولية الحكم في بني قريظة لأنهم كانوا حلفاءه وحلفاء قومه، فكان حكمه عليهم من جنس أعمالهم وما عرضوا المسلمين إليه، فأمر بقتل رجالهم، وسبي نسائهم وأطفالهم، وغنم أموالهم، وقد

(33) تحكيم سعد بن معاذ: انظر ابن هشام 239/2.

كان، فلا يجوز في هذه المواطن أي ضعف أو تخاذل أو رحمة، فليست الخيانة هينة ولا دماء المسلمين رخيصة كما غدت في عصرنا. وبهذا الحكم تطهّرت المدينة من أرجاس اليهود، وصارت خالصة للمسلمين، وأمنت الجبهة الداخلية من الخطر اليهودي والخيانة، وفقد المشركون الأملَ في أي عونٍ جديدٍ من داخل المدينة في حربهم ضد المسلمين.

والملاحَظ في هذه الغزوة أن الرسول ﷺ استعجل أصحابه للخروج إلى الغادرين فصاح فيهم: (لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة)[34] يستحثهم بذلك على الإسراع في المسير إليهم، وهذه هي عزة المؤمن، لا يترك عدوه يصول ويجول تدميراً وإفساداً في الأرض، بل يبادر إلى استئصال شأفته قبل أن يركن لما فعل، ويتمادى فيه.

۞ مع بني لحيان: ولا يسكت المسلم عن الغدر، ولا يأمن لمن غدر به أول مرة، لقد جاء نفرٌ من قبائل عضل والقارة، يطلبون مَن يعلمهم الإسلام، فأرسل الرسول ﷺ معهم نفراً من أصحابه فيهم عاصم بن ثابت وخبيب بن عدي ليعلموهم، فلما كانوا في وسط الطريق استعدوا عليهم بني هذيل الموتورين، ويبدو أنهم قد بيتوا الأمر معاً من قبل، فقتلوهم إلا اثنين منهم باعوهما في الأسواق ليشتريهم من له ثأر عندهم من الغزوات السابقة، ولم يكن من الصواب تركُ هؤلاء دون محاسبتهم على فعلهم، لذا فما كاد الرسول ﷺ يفرغ من الأحزاب حتى توجه بنفسه إلى بني لحيان، ولكن عيونهم نقلت إليهم نبأ وصول المسلمين، فتسللوا إلى

(34) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه، حديث رقم 4169.

رؤوس الجبال[35] يلوذون بها هاربين، ولم ينزلوا للمواجهة أبداً،، فبثّ السرايا لمطاردتهم، ولكنهم أحسنوا التحصن والاختفاء، فبقي في ديارهم أياماً (ليظهر مدى قوة المسلمين وثقتهم بأنفسهم، وقدرتهم على الحركة حتى إلى قلب ديار العدو متى شاؤوا) [36]

۞ أما يهود بني قينقاع فقد كانت نارُ الغيظ تأكل قلوبهم كإخوانهم، فأظهرت العداء والتحديات والغضب، وكان المسلمون يغضون عن ذلك، أو يتعاملون معه بحكمة ليطفئوا نار الشر، لكن بني قينقاع صمموا على نقض العهد بأفعالهم المتتالية، ونفثوا حقد سمومهم في امرأة مسلمة دخلت سوقهم لشراء حاجة، فعمد أحدهم إلى طرف ثوبها فعقده، فلما قامت سقطت وتكشّفت فتضاحكوا عليها فصاحت مستنجدة، فهب رجلٌ من المسلمين على الفاعل فقتله، فقامت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ قومُه المسلمين على اليهود، فتوجه الرسول ﷺ إليهم، فتحصنوا في حصونهم أياماً، فقطع عنهم المدد، وأبى فكّ الحصار أو السكوت على انتهاك الحرمات التي لا يغضب في حياته إلا من أجلها، فدبّ الرعبُ في قلوبهم بأمر الله، ونزلوا على حكمه، فأجلاهم عن المدينة بعد شفاعة رأس النفاق عبدالله بن أبي بن سلول[37].

۞ وكان اليهود من أهل خيبر ومن انضم إليهم ممن أجلي عن المدينة لا يتوقفون عن التأليب على المسلمين، وإثارة الأعداء عليهم، كما فعلوا يوم الخندق،

(35) ابن هشام 2/280.

(36) السيرة النبوية: الصلابي . 322.

(37) أورد ابن هشام أصل القصة 2/ 48.

فكانت أرضهم محل حياكة المؤامرات، ومركز الدسائس وإشعال فتيل الحروب، وما زالوا يجتمعون بالأعراب ويثيرونهم على المسلمين، والأخبار في ذلك تترى لا تتوقف، فكانت الحرب الوقائية لتجنّب مزيد من حروب مستقبلية وحفظ الدماء والأرواح وحسن استثمار الوقت في توعية الناس وحماية الدولة الناشئة من أي اعتداء جديد يستنزف مواردها وجهد أبنائها ولإفساح الطريق أمام المسلمين ليبلغوا رسالة الله إلى الناس بهدوء.

۞ بعد صلح الحديبية تفرغ الرسولُ ﷺ لدعوة الأمم الأخرى، فأرسل رسلاً ورسائل إلى الملوك والأمراء، ولكن عامل الشام من قبل الروم اعتدى على رسولِ رسولِ الله فقتله، وقتلُ الرسولِ مذمومٌ عند العرب وفي الشرائع وفي القوانين الوضعية، وهو دليلُ إهانة المرسِل، وانتقاصٌ من قدْره، وإعلانٌ للحرب عليه، ولم يكن للرسول ﷺ والمسلمين أن يسكتوا على هذا الحادث الجلل، ولم يكن حادثاً فرداً فقد واكبه اعتداء أهل تلك البلاد على سريةٍ أرسلها الرسولُ ﷺ إلى (ذات أطلاح)، فأحاطوا بالدعاة فيها وقتلوهم إلا أميرهم الذي فر جريحا وأوصل خبرَ ما حدث للمدينة، كما كان نصارى عرب الشام يعترضون طريق التجار المسلمين، وكانوا يعتدون على كل من تصله دعوة الإسلام ويُسلم من أهل الشام، ولم يقتصر أمرُهم على الاعتداء بل جاوزه إلى القتل، حتى إنهم قتلوا والي (معان) لأنه أسلم. وكان لا بد من الردّ بقوة على هذه التصرفات لئلا تثير في نفوس البقية رغبة الاعتداء على المسلمين أو تزعزع هيبتهم، أو تُطمع غيرها في دولتهم، وليأمن المسلمون ودعاتهم وتجارهم، ولتثبيت هيبة المسلمين وعزتهم في النفوس سواء في ذلك نفوس الأعداء لكيلا يطمعوا فيما هو أكبر، ونفوس المسلمين أنفسهم لكيلا

يشعروا بالذلة والهوان وتقصير الدولة في حمايتهم ورسولٌ لهم يُقتل دون أن يأخذوا بحقه وينقذوا سمعتهم ويحموا دينهم، ويبلغوا دعوَتَهم، فكانت غزوة مؤتة في العام الثامن للهجرة[38].

۞ كان صلحُ الحديبية الذي وقعه الرسول ﷺ مع المشركين ينصّ على أن تدخل القبائل في حلف مَن تختاره من الفريقين على ألا يعتدي أحدهم على الآخر، فدخلت قبيلة خزاعة في حلف المسلمين، ودخلت قبيلة بكر في حلف قريش، ولكن قريشاً وحليفتها لم تلتزم بالعهد، فأغارت بكر على قبيلة خزاعة الآمنة ليلاً وقد أمدتها قريش بالمال والسلاح وبعض الرجال، وقتلت منهم عشرين فرداً ثم عادت إلى ديارها. أما خزاعة فقد لجأت إلى رسول الله ﷺ، إذ ركب عمرو بن سالم الخزاعي راحلته وأتى النبي ﷺ يستنجده ويناشده النصر على من غدر ونقض العهد، فكان مما قاله في الاستنصار

يا رب إني ناشدٌ محمدا ** حلف أبينا وأبيه الأتلدا

قد كنتم ولدا، وكنا والدا ** ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا

فانصر هداك الله نصراً أعتدا ** وادع عباد الله يأتوا مددا

هم بيتونا بالوتير هُجّدا ** وقتلونا ركّعاً وسُجّدا[39]

وجاءه الرد النبوي بعزة: (نصرت يا عمرو بن سالم)[40] وكان لا بد من الرد على المعتدي والاقتصاص للمظلوم، وتأديب ناقضي العهود، وإلا فلا كرامة ولا مهابة للمسلمين بعدها، ولا احترام لأي عهد مستقبلي.

---

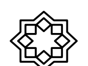
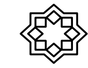
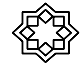
(38) سيقدمها الكتاب بتفاصيل أكثر في الصفحات القادمة بإذن الله.

(39) جاءت الأبيات بكاملها في ابن هشام 2/ 194، 195.

(40) ابن هشام 395/2.

۞ ويوم فتح مكة دخل الرسول ﷺ على راحلته ساجداً، تكاد جبهته تمس الرحل، فكان في تواضعه لربه في قمة العزة، ثم وصل الكعبة المطوقة بـ 360 صنماً، فأخذ عوداً دفعه في كل صنم أقيم حولها وطالت إقامته، وهو يقول: ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾، الإسراء 81 ويقرأ: ﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ ﴾ سبأ49 وهو بتلك الطعنات يطعن آخر أنفاس للشرك. ثم أمر بلالاً فصعد إلى سطح الكعبة وانطلق النداء الخالد أول مرة من فوق بيت الله المحرم، وسال الصوتُ العذبُ في أرجاء الوادي معلناً انتصارَ الدين الإلهي، ومعلناً انتصارَ الصبر والثبات على آلام الدنيا ومصاعبها، فهو الذي كان بالأمس يُجَرّ على رمضاء هذه الأرض، ويُسام أقسى العذاب هو نفسه اليوم يرقى أعظم بناء في الكون. وفي البقعة التي شهد فيها العذابَ، وشهد ترابُها دماءهم وزفيرَ أنفاسِ آلامهم، يشهد عليها الآن بانتشار دينه إلى الدنيا كلها. وأرسل الرسول ﷺ السرايا من بعدُ إلى كل الأوثان ليهدمها ويقضي على الوثنية من الجزيرة العربية. ودانت له مكة كلها بعد أن عاندته كثيراً، وعذبته طويلاً.

وظهر في حروب المسلمين، وفي المعاملة النبوية أثناء الحرب المفهوم الواضح لمعنى الأخلاق في الإسلام في أكبر ميدان تهدَر فيه الأخلاق بل تقتلَع وتباد، كان الخُلُق النبوي الراقي تجسيدا للرحمة والعفو مع المقدرة والحزم، فلا لين في مواطن تزرع الطمع في نفوس الآخرين، ولا شدة تنفرُ الآخر منا أو تستبيح إنسانيته وتهتك حرمته، وفي المبحث الجديد شيء من تلك الملاح الإنسانية الإسلامية الراقية في حياة قدوتنا المصطفى ﷺ .

المبحث الرابع: المحارب

هو محاربٌ مجاهدٌ، وهو محاربٌ مسالمٌ، وهو محاربٌ رحيمٌ، يسكتُ عن الأذى ويحتملُ العداء إلى أن يراه مهدِّداً لدولته أي لدعوته، دعوته التي هي أمانةُ ربه، دعوته التي هي حياةُ الكون؛ لذلك فإنه يحارب بعد أن أذن له ربه، ولكنه لا ينفك عن مبادئ دعوته الرحيمة التي ما جاءت إلا لإنقاذ الناس، ولم تجئ لإعناتهم ولا لإزهاق أرواحهم، وهو لا ينفك في الحرب عن قيم الدين الرفيعة ومُثُله العليا وأخلاقه النبيلة، فإنما الحرب وسيلةٌ لإزالة العوائق بعد استنفاد الطرق الأخرى كافة، وهي وسيلة لإبلاغ الدعوة إلى العالمين لتصل إلى كل فرد فلا تكون له حجة في عدم انقياده للواحد الديان، وهي وسيلة لرد مكائد المتربصين، وصد عدوان المعتدين. لكنها ليست وسيلةً قذرةً تبرّرها تلك الغايةُ الساميةُ، ليست وسيلةَ إبادةٍ أو قهرٍ أو إذلالٍ، إنه في قمة الرقي في الأخلاق نظرياً وعملياً، سلماً وحرباً، وأيّ كلامٍ يقالُ في هذا فهو أقلّ من الواقع بكثير، وهذه مقتطفاتٌ صغيرةٌ من بعض مواقفه في الحرب تشرقُ شمسُها ساطعةً فتحرق شبهاتِ الضالين والمغرضين، وتنير قلوبَ المؤمنين الموحدين.

۞ عندما خرج الجيش الإسلامي في مؤتة متجهاً إلى الروم في الشام وصّاهم رسولُ الله ﷺ بهذه الوصية التي تكشف أخلاقيات المحارب المسلم، وأخلاقيات الحرب في الإسلام. قال لهم: (أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً، اغزوا باسم الله، في سبيل الله مَن كفر بالله، لا تغدروا، ولا تقتلوا وليداً، ولا امرأةً، ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقربوا نخلاً، ولا تقطعوا

شجراً، ولا تهدموا بناءً، وإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم إلى إحدى ثلاثٍ: فإما الإسلام، وإما الجزية، وإما الحرب).

وصية الرفق، وصية مَن لا يريد علوًّا في الأرض ولا فساداً، والتزموا بها، كما التزم بها معظمُ المسلمين فيما بعد (فكانت حروبهم أرحمَ حروبٍ عرفها التاريخ، وكانوا وهم محاربون أدمث أخلاقاً وأشدّ رحمةً من غيرهم وهم مسالمون) [41]

۞ وبعد أحد طلبوا منه أن يدعو على المشركين لما فعلوا فيهم، فقال: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون).

۞ وفي غزو حنين مرّ ﷺ بامرأةٍ قد قتلها خالدُ بن الوليد والناس مجتمعون عليها، فسأل: ما هذا؟ فقالوا: امرأة قتلها خالد بن الوليد. فقال رسولُ الله ﷺ لبعض من معه: (أدرك خالداً فقل له إن رسولَ الله ينهاك أن تقتل وليداً أو امرأةً أو عسيفاً). [42]

ويستثنى من حرمة قتل النساء والأطفال والأجراء والعبيد في الجهاد إذا اشتركوا في القتال ضد المسلمين، فعندها يجوز قتلهم مقبلين، ويجب الإعراض عنهم مدبرين. [43]

۞ وقبل أن يدخلوا مكة في الفتح سمع الرسول ﷺ سعدَ بن عبادة حاملَ راية المسلمين يقول: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة[44]. فقال ﷺ: اليوم يوم المرحمة، اليوم يعظم اللهُ الكعبة. وأخذ الراية من سعد وأعطاها لابنه قيس بن

(41) السيرة النبوية: السباعي . 122.

(42) العسيف = الأجير والعبد، انظر ابن هشام 458/2.

(43) انظر فقه السيرة للبوطي . 428.

(44) ابن هشام 2/ 406.

سعد لئلا يكون في نفس الأب شيء إن أعطيت الراية لغيره.

ﷺ وقف بباب الكعبة وقد اجتمع الناس حوله فخطب فيهم ثم أجال عينيه في الجموع المحدقة المترقبة وسألهم: ما تظنون أني فاعلٌ بكم؟

واستعادت أذهانهم ما فعلوه فيه وفي صحبه وهم بين أظهرهم، ثم بعد هجرتهم مِن أخذِ مالهم وديارهم، ومهاجمتهم في دارهم الجديدة، وخفقت القلوب وجِلةً وهي تتصور أعظمَ عقابٍ يليق بما فعلت على نحو ما يصل سمعَها حيناً من أمراء القبائل أو من ولاة فارس والروم، لكنهم لا بد أن يردوا فماذا هم قائلون؟

وإذا بذاكرتهم تحلّق إلى ماضٍ قريبٍ، إلى أيامٍ ليست بالبعيدة حين كان معهم قبل بعثته، فتذكروا نبلَ أخلاقه وكرمَ شمائله، وتذكروا صبرَه عليهم وعلى عذابهم بعد نبوته، فخفقت القلوب بالأمل الذي لم يجدوا غيره وهم في هذه اللحظة الحرجة التي بلغت فيها قلوبُهم حناجرَهم من شدة الخوف والترقب فقالوا: (خيراً، أخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريم) . وسجلوها على أنفسهم حين اعترفوا مرة أخرى بحاله وحالهم، وأفعالُهم السابقة تناقض مقولتهم هذه.

وتداعت أمام عينيه ﷺ صورُ أصحابه المعذبين بأيدي هؤلاء، وتتالت صور الشهداء عبر هذه السنين الطويلة، واسترجع ألمه النفسي والجسدي أيام مقامه بينهم. ومع إشعاعات الإيمان المنبثقة من قلوب المؤمنين الصابرين، ومع أجواء السعادة الأبدية التي حظي بها الشهداء تألقت أنوار الدعوة أمام عينيه وهي تخترق أرض الجزيرة لتضيء العالمَ كله فانطلقت مقولته الخالدة مدويةً في سمع التاريخ،

مخلدةً إلى قيام الساعة: (اذهبوا فأنتم الطلقاء)[45].

رقى قمة العدل فتواضع، رقى قمة التسامح فصفح، رقى قمة الرحمة فمنح، وانطلقت كلمته سهماً في قلب الوثنية العربية قضى عليها وعلى ذيول الكِبر والعناد فأسلم الآلاف إثرها وقد بهروا بالأخلاق الإسلامية، وجذبتهم الشمائل النبوية.

۞ ومن خلق هذا المحارب أنه بعد دخول مكة منع أيّ قتل لأحد من أهلها، وتعهد بدفع دية مَن قُتل[46] وإن كان مشركاً، فأي فاتحٍ في التاريخ فعل أو يفعل كفعله؟

۞ وخرجوا من حنين إلى الطائف التي لاذ بها كبارُ المحاربين من حنين فحاصروها، وتلقوا ما أطلقه عليهم العدو من النبال وما قذفوهم من النار، وقتل عدد منهم، وعرف الرسول ﷺ أنهم لن يخرجوا قبل عام حين ينفد ما ادخروه لأنفسهم، فقرر العودة، فقيل له: يا رسول الله ادعُ الله على ثقيف. ولثقيف مع الرسول ﷺ تاريخٌ سابقٌ من سوء الاستقبال، وإطلاق الصبيان والسفهاء عليه لضربه وسبه، ولكن هذا المحاربَ الداعيةَ قال: (اللهم اهدِ ثقيفاً وائتِ بهم). فما هو إلا قليل من الوقت لا يقترب من العام حتى جاء وفدُهم إلى المدينة يعلن إسلامَهم.

۞ وكان من أخلاقيات الحرب الإسلامية أنه عند النزول بقرية لا يمسيهم،

---

(45) ابن هشام 412/2.

(46) "لقد قتلتم قتيلاً لأدينه" في ابن هشام 2/ 416، وانظر فصل (أول قتيل وداه الرسول يوم الفتح) في الصفحة نفسها.

بل ينتظر الصباح[47]، فإن سمع الأذان فيهم توقف، وإلا تقدم، حتى إن أهل خيبر لم يشعروا به وباتوا ليلتهم آمنين إلى أن رأوه في الصباح فآذنهم بالحرب بعد أن لم يسمع الأذان. لعل مدعي الحضارات يعرفون شيئاً من الحضارة الحقيقية في عدم بدء الحروب ليلاً، وإقلاق الآمنين وترويعهم، ولكن هذا الفعل أضحى في زمن الحضارات الزائفة ديدن المحاربين استخفاءً بالظلام، وتوفيراً للعتاد!

۞ وكان رسول الله ﷺ يتجنب القتال ما استطاع إلى ذلك سبيلاً

. عند فتح مكة دعا بأخذ العيون عنه لئلا يضطر لخوض قتالٍ تهدرَ فيه الأرواح وتسال الدماء وهو محتم الوقوع إن علمت به قريش وهو خارج من المدينة قبل أن يصل مكة فتستعد له وتتهيأ لملاقاته وقتاله.

. وأمر أصحابه في الفتح أن يتفرقوا في مداخل مكة فلا يدخلوها من طريقٍ أو مدخلٍ واحدٍ[48] وذلك بغية تفويت فرصة القتال على أهل مكة إن أرادوا ذلك إذ سيضطرون إلى تشتيت جماعاتهم وتبديد قواتهم في جهات مكة وأطرافها، فتضعف لديهم أسباب المقاومة ومغرياتها، فدخل المسلمون مكة من جهاتها الأربع، ولم يدخلوا من مدخل واحد.

وإنما فعل الرسول ﷺ ذلك حقناً للدماء ما أمكن، وحفظاً للسلامة والأمن في البلد الحرام، فإن الضعف يسري في مَن سيدخلون عليه إذا بوغتوا بهم، فيكون عاملُ المفاجأة سبباً في سرعة هزيمتهم، وتجنب القتال وإراقة الدماء.

ومن أجل هذا أمر المسلمين ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم وأعلن أن من دخل

(47) انظر حديث 4246 في صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر.

(48) انظر ابن هشام 2/ 406، 407.

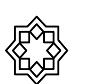
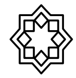
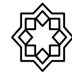
داره وأغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. فإنه ما دخل سفاكاً للدم ولا مفرّغاً لأحقادٍ أو ثارات، إنما دخل داعياً إلى الله، مطهراً أرضه من رجس الوثنية.. وسلامة أهل البلد مع حيادهم خيرٌ من سفك دمهم وقتالهم.

ولا تمنعه تلك الرحمة ولا تلك الأخلاق الحربية العالية من الحزم في المواقف التي تستدعيه وإلا ضاعت الهيبة وتوقفت الدعوة وربما انمحت دولة الإسلام ولم تعد تقوم لها قائمة، وهذا من الخطوط الحمراء ـ بتعبير عصرنا ـ التي لا يجوز السماح بالوصول إليها وإلا زال كياننا كله عن الوجود.

لاحظنا من المواقف المتعددة للعزة النبوية والحزم المناسب في موقفه أن مما لا يمكن التساهل فيه بل ينبغي التعامل معه بالحزم والشدة مواطن نقض العهود كما حدث في فتح مكة، وكما فعل اليهود عدة مرات جرياً على عادتهم في الغدر ونقض العهود وذلك لما يشكله الغدر ونقض المواثيق من خطر عظيم نفسياً وأخلاقياً ومادياً وسياسياً يؤثر في كيان الأمة المطمئنة إلى نفاذ العهد والتزام الآخر به فلا تدري ما يحيكه لها من مؤامرة بنقض ما اتفق عليه ومفاجأته لها، أو مساعدة العدو عليها كما هو موقف الرسول ﷺ من غدر بني قريظة حتى نادى في صحبه ألا يصلينّ أحدكم العصرَ إلا في بني قريظة، فترك بعضهم الصلاة مع دخول وقتها وجدوا في السعي ليصلوها ويحاسبوها على الغدر وعون العدو وكشف ظهر المسلمين والدلالة على عوراتهم ونقاط ضعفهم، ثم كان الحكم فيهم موافقاً لجنس عملهم فقتل جميع رجالهم وسبي النساء والأطفال.

ورأينا الحزم والشدة مع بني قينقاع الذين استهانوا بالأعراض ومسوها

بالأذى.. وهذا مما لا يُسكت عنه ولا يجوز الصمت عليه، فتحرك لحصارهم وشدد عليهم حتى استسلموا، ولولا شفاعة ابن سلول لكان مصيرهم كمصير بني قريظة، وفي هذا الموقف القوي حكمةٌ وقوةٌ وليس مناط تهمة كما قد يتخذه بعض دليلاً على الشدة وقتل الأبرياء بزعمهم، لأن قتل بني قريظة لم يقتصر على القادة الذين حاكوا المؤامرة مباشرة، فقد دفعوا جميعاً ثمناً باهظاً نتيجة أفعال القادة في نقض العهد، ولكن علينا ألا ننسى أن بقية الشعب القرظي يعلم المكائد ويصمت ويوافق في قرارة نفسه يبتغي تحقق ما أراده قادتهم، وبفرض وجود من يرفض ذلك من بينهم فالصمت مشاركةٌ ضمنيةٌ، وعلى الشعب أن يتحمل نتائجَ اختياره لقادته أو صمته عن شرورهم، فإن أراد النجاة فليحسن الاختيار، وليأخذ على يد الظالم قبل أن يعمّهم العذاب مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ ﴾ الأنفال: 25.

المبحث الخامس: في الميـدان

وهذه وقفاتٌ مطولةٌ مع أحداث اثنتين من الغزوات، نتصفح فيها تلك الأخلاق النبوية في سجلات التاريخ. فأما الأولى فهي غزوة فريدة في مسيرتها ونتيجتها، والدروس التي خرج بها المسلمون، وأما الثانية فبيانٌ لأثر القيادة النبوية والتربية المحمدية في أفراد الأمة الإسلامية عند ابتعادهم عن قائدهم.

۞ غزوة أحد = 3 هـ[49]

مالت الشمس إلى المغيب، وقارب الأصيل نهايته، واستعدت خيوط الظلام للامتداد في الكون لتبدأ في حياكة ثوب الظلام، ثوب الكون في ليلته الجديدة. وإذا بظلمةٍ وجلبةٍ تبدو في الأفق، فقد عاد المشركون إلى مكة يلملمون ذيول الخيبة يظللهم عار الهزيمة أمام 300 فردٍ لم يخرجوا يريدون قتالاً ولم يتأهبوا له، وتفور قلوبهم بنيران الغيظ، ويتصاعد لهيبُ الحقد فيها، فيجمعون أمرهم على الإعداد لمعركة جديدة يستردون فيها كرامتهم بين العرب، ويأخذون بثأر أكابرهم الذين سقطت رؤوسهم في تلك الهزيمة.

وأتموا استعدادهم النفسي والمادي بعد قرابة عام في ضعف عددهم السابق بثلاث مرات، وقد استعانوا في أمرهم بما كان في القافلة التي نجت من المسلمين في بدر، فاستأذنوا أهلها أن يجعلوا ما فيها لإعداد العدة والعتاد للقاء من وتَرهم وأذلّ

(49) راجعت غزوة أحد من مصادر متعددة منها: ابن هشام، البداية والنهاية، السيرة النبوية للندوي، الرحيق المختوم.

ناصيتهم، فوافقوا، وكان ما فيها قيمته خمسون ألف دينار، فأحسنوا الاستعداد وأكملوا التجهيزات.

ووصل خبرُهم إلى المدينة النبوية، فاستشار قائدُها أصحابَه: ما يرون في هذا الجيش القادم إلى مدينتهم ينوي استئصال خضرائهم وإبادة آثارهم؟

وكان طريق التصدي هو واحداً من خيارين:

. إما البقاء في المدينة ثم قتال العدو عند دخوله إليها، ويشارك أهل المدينة كلهم في ذلك رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً. ويبدو أن رسولنا ﷺ كان من الراغبين في هذا الخيار.

. وإما الخروج من المدينة لملاقاة الخصم قبل وصوله إليها.

وكان رأي الشيوخ والكبار موافقاً للخيار الأول، لكنّ من حُرِم القتال بالأمس ولم يُمنَح شرف المشاركة في الفرقان (غزوة بدر) توثبت نفسه لتعويض ذلك ولئلا يظن العدو بالمسلمين خوراً وجبناً، وهؤلاء هم الأكثرية أمام الفئة الأولى، فكان رأيهم هو الخروج، وألحوا على الرسول ﷺ في ذلك، فاستجاب لهم ﷺ، وقام إلى لامته يلبسها، فإذا بالنفوس المرهفة المحبة تشعر أنها قد تكون ألحت فأثقلت حتى حملته على ما لا يريد، فتراجعوا وقالوا: استقر هناك يارسول الله، ولم يكن لنا ذلك، فإن شئت فاقعد. فقال: (ما ينبغي لنبيّ إذا لبس لَأْمَتَهُ أن يضعها حتى يقاتل).

الله أكبر! وهل الحرب إلا عزْمٌ وحزْمٌ؟ وهل الحرب إلا قوةٌ ومضاء؟ وماذا يؤدي التراجع في ذلك الوضع إلا إلى الاضطراب ووهن الثقة في القائد والقيادة وربما هدف القتال؟ ولهذا من الثمار المرة ما قد يفوق مرارةَ القرار الخطأ. فكان

السبيل هو المضي في الطريق الذي اختاروه بلا تراجعٍ أو ضعفٍ، وعقد الرسول ﷺ الألوية، فأعطى لواءَ المهاجرين لمصعب بن عمير، ولواء الأوس لأسيد بن حضير، ولواء الخزرج للحُباب بن المنذر الذي أثبت كفاءةً عاليةً ونظرةً ثاقبةً في المعركة السابقة، فحق له أن ينال منصب القيادة في الميدان.

وخرج المسلمون في ألفٍ انسحب منهم 300 بقيادة أُبيّ بن سلول رأسِ النفاق يريدون بذلك النجاةَ بأنفسهم، وترقبَ النتيجة ليسايروا الموجةَ الغالبة، وتثبيط المسلمين عن عزمهم وإيمانهم، وتشجيع عدوهم حين يعلم بانقسام الجيش وقلة عدده.

وبدأ الاستعدادُ العسكريّ والتكتيكُ الحربيّ، فاختار الرسولُ ﷺ موقعاً مميزاً يسمح له بالسيطرة على أرض المعركة واستشراف ما فيها، مع تأمين الظهور لكيلا يهاجَموا من خلفهم، فجعل جبل أحد خلف ظهور المسلمين، وجعل على الجبل المقابل خمسين رامياً من خيرة الرماة، وصدرت لهم الأوامر الرئاسية المشددة من القيادة النبوية العليا بألا يبرحوا أماكنهم أنى كانت نتيجة المعركة، فعليهم التزام موقعهم ولا ينزلون لا لنصرة المسلمين إن هُزِموا، ولا لمشاركتهم الغنائم إن انتصروا إلى أن تردَهم الأوامر الجديدة، وكان نص الأمر النبوي: "إن رأيتمونا تخطفُنا الطيرُ فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسِل إليكم، وإن رأيتمونا هزمْنا القوم ووطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم" وفي رواية: (لا نؤتين من قبلك).

وانطلق صناديد المسلمين يقتلون المشركين، يضعون فيهم السيف، يحسّونهم بأمر الله، وظهرت بطولات نادرة، ومواقف ذائعة، وتضحيات رائعة، وأبلى الرماة بلاءً حسناًً إذ كانوا ينضحون المهاجمين بالنبل فيردونهم عن اقتحام مراكز الثقل

في الجيش الإسلامي، فيما ركّز المسلمون على لواء المشركين فكانوا يقتلون كل من يحمله، فدبّ الرعب بين القوم، وتمشّت الهزيمة أمام أعينهم، فلاذ أكثرهم بالفرار، وبلغ بهم الخور حدًّا جعلهم يتركون لواءهم ساقطاً لم يحمله أحد منهم بعد مقتل كل من حمله من قبل وهم أحد عشر حاملاً للراية.

وأشرقت طلائعُ النصر، وغردت أطيارُ الفوز في ساح المعركة تعلن البشرى للمسلمين الذين لم يتركوا أعداءهم بل لحقوا بهم يقتلونهم ويأخذون سلبهم لئلا يفلت أكابرُ المجرمين الذين يحيكون الخطط للمعارك الجديدة دوماً.

وبدأت نشوة النصر تميل الرؤوس، وتأخذ مكان القيادة العسكرية لتعلن انتهاءَ المعركة، وتصدر الأوامرَ للرماة بالنزول من الجبل ومشاركة بقية إخوانهم في النصر والغنائم، وأبى قائدُهم وبعضٌ منهم تلك الأوامر الموهومة التي يصدرها الهوى والعقلُ المحجوب بغلالة النصر، والنفسُ الأمارة بالسوء، وذكّرهم بأوامر القيادة العليا التي ينبغي ألا تُعصى فلها حكمة لا يدركها الجندي في موقعه المحدد كما يدركها القائد ببعد نظره وحسن تقديره للأمور ووضع كل الاحتمالات وتقدير عواقبها، وسدّ أي ثغرة قد ينفذ منها الخصم.

لكن الأغلبية نزلت من الجبل متبعةً تلك الأوامر الوهمية متجاهلةً التعليمات الأولى. وإذا بفئةٍ من المشركين كانت في طريقها للفرار على رأسها خالدُ بن الوليد ترى انكشاف الجبل، ويغريها قلة الرماة الباقين، فتعود رغبة الظفر لتمنّي النفس بالغلبة على هذه الهزيمة المنكرة التي فرت فيها حشودهم التي تربو على الآلاف الثلاثة أمام هذه القلة المجاهدة، فيلتف خالد حول الجبل، فيقتل مَن بقي فوقه، ويتسلم هو ومَن معه ذلك الموقع الخطير، وتستمر الحرب ـ بعد أن كادت تنتهي ـ

بنتيجة جديدة بعد انقلاب ميزان القوى.

صار المسلمون في وسط الميدان مكشوفي الظهر، والمشركون في الأعلى يطلقون عليهم النبل والسهام فتقع منهم موقعاًً أليماًً أشاع في صفوفهم الاضطراب، وأوقع منهم الكثير قتلى، وقلب النصر هزيمة حلّت على المسلمين في أبشع صورة إذ لم يسلَم قائدهم من أذاها؛ فإن للمعصية سهاماًً تنطلق لا تفرق بين من تُوجه لهم ابتلاء من الله وتحذيراًً، وإعلاناًً صارخاًً بخطرها على الأمة بأكملها.

فشُج وجه النبي ﷺ، وسال الدم منه غزيراً، ودخلت حلقتان من الدرع في خدّه، وكسرت رباعيته، وجرحت شفته، وسقط في حفرة كان يحفرها أبو عامر الراهب "الفاسق" للإيقاع بالمسلمين، وأشيع في الناس مقتله، وبرزت تضحيات، وضربت أعظم الأمثال في المحبة والفداء.

أشيع أن الرسول ﷺ قد قُتل فانهارت الروح المعنوية في البداية، وتوقف من توقف منهم عن القتال، ومر بهم أنس بن النضر فقال: ما تنتظرون؟ فقالوا: قُتل رسول الله. قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ. ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني المسلمين ـ، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني المشركين ـ. ثم تقدم وهو يقول: واهاً لريح الجنة، إني أجده دون أحد، ثم مضى فقاتل حتى استُشهد، وما عُرِف مما حل به من تقطيع وتشويه، حتى عرفته أخته بِبَنانه، وكانت به بضع وثمانون ضربة ما بين طعنةِ رمحٍ ورميةِ سهمٍ وضربةِ سيفٍ.

ومر رجل من المهاجرين بأنصاري وهو مضرج بدمه فقال: هل شعرت أن

محمداًً قد قتل؟ فقال الأنصاري الجريح بإيمان: إن كان محمدٌ قد قتل فقد بلّغ، فقاتلوا عن دينكم.

وأحاط عدد من المسلمين بنبيهم يحمونه من أي اعتداء يستهدفه، فجعل بعضهم من أجسادهم ترساًً يقي رسول الله ﷺ فيتلقى عنه الضربات ليسلم هو، كأبي دجانة الذي انحنى يحمي نبيه فتقع النبال في ظهره وهو لا يتزحزح عنه، وكأبي طلحة الذي وقى الرسول ﷺ حتى شلت يده.

وتنبه المسلمون لعظم المأساة وجاءهم نداء قائدهم على الرغم من خطورة ظهور صوته أمام العدو لئلا يحدد مكانه بدقة: (يا عباد الله)، فتحلق عدد منهم حول الرسول ﷺ يحمونه بظهورهم، ويقدمون أرواحهم بين يديه، وسقط أمامه ودونه عدد من المخلصين، وسقط في الميدان عدد من كبار الصحابة. وعاد للحائرين رشدهم، وذهب عن الجزِعين جزعهم وانكشفت سحابة الذهول عن سماء أفئدتهم، فعادوا إلى القتال على شدته وجسامة الخطر فيه.

وانتهت الحرب، وكفّت قريش وقد زَهَت بحلاوة النصر، لكنها لم تتابع المسير خلف المسلمين بعد أن رأت اشتدادهم في آخر الحرب، وعاد المسلمون إلى المدينة عودةً غير عودتهم في الغزوة السابقة، لقد عادوا وقد نقص منهم عددٌ كبيرٌ من الخيرة، عادوا ودماءُ الجراحات نازفةٌ، تدمى كلوم أجسادهم، وتنبض قلوبهم بدماء كلْم أقسى، وتتجرع مرارة الدرس العملي الكبير.

ومضت ليلتُهم الحزينة، وإذا بمنادي الرسول ﷺ ينادي صباحها للخروج من جديد للقاء العدو، محدداً الفئة التي ستخرج بأنها: (لا يخرج معنا إلا من شهد القتال الأمس) وذلك أنه ﷺ خشي أن يعود المشركون بعد انسحابهم ليهاجموا

المدينة على غرّةٍ من أهلها، فهم يتوقعون أن المسلمين ما زالوا في حسرتهم وشدة جرحهم فيغيروا عليهم في عقر دارهم، ويبيدوهم بعد أن لم يقدروا على ذلك في ميدان المعركة.

وكانت القلوب التي شفُها الحزن ليلتها لما حل بها قد وعت الدرس الأليم، وأدركت أسبابه، وتشربت خلاصته، فرسخ فيها، عرفت أن الهوى قاتل، وأن النفس هي العدوّ الأكبر المطلوبُ جهادُه، وأنها إن أعطيت ما تشتهي كان المصير مؤسفاًً، أدركوا خطورة المعصية وجسامة الخطيئة في ميدان القتال.

استوعبوا الدرس ليلتهم تلك وأصبحوا أقوياء بفضل الله، لا تمنعهم جراحات جسدهم الدامية عن تصحيح المسار، والنهوض من جديد، بعد أن لأموا جراح قلوبهم بفهم الدرس، وتعميق الإيمان بالتسليم والرضا بقضاء الله الذي حمل لهم إشاراتٍ ما كانت لتستقر في أذهانهم لو أنهم انتصروا، فللكبوة آثارٌ أشدّ رسوخاً في النفس من آثار التعليمات المجردة للأمن من الوقوع بها. لذلك خرجوا جميعاً لم يتخلف منهم لأحد، أو يعتذر بجرح أو تعب أو عجز، داسوا أنفسهم وراحتها وشهواتها، وهبوا خلف نبيهم منطلقين إلى حمراء الأسد كما استنفرهم المنادي.

استكملوا أسباب الطاعة، وتلافوا النقص، وتجنبوا المعصية، وجاهدوا النفس، تكاملت الأسباب، فأتى نصرُ الله وغشِيتهم رحمةُ الله.، فلم يحوجهم إلى قتال، ولم يضطرهم إلى عراك، بل رحم آلام أجسادهم التي ما كانوا يلقون لها بالاً ما داموا في نصرة دين الله وطاعة رسول الله، لكنه تعالى أرحم بهم، فكفى الله المؤمنين القتال، وصرف المشركين عنهم بغشاوة أعينهم بغطاء عجيب لا يتصوره

المرء، فإن معبداً الخزاعي[50] قد مر على المسلمين وهم في حمراء الأسد ليلاً يترقبون عدوهم، وقد أشعلوا نيراناً عظيمةً فظنهم في أعداد كبيرة.

فلما وصل إلى المشركين المترصدين للمسلمين وهم يحشدون يريدون مهاجمة المدينة للقضاء على المسلمين فيها سألوه عما رأى في طريقه، فقال: إن محمداً خرج في أصحابه يطلبكم في جمعٍ لم أرَ مثله قطّ، يتحرقون عليكم تحرّقاً، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أرَ مثله قط.

وكان المشركون يتخوفون من انضمام بقية المسلمين الذين لم يشاركوا في القتال في أحد، ولما سمعوا هذا الكلام إذا بجنديّ من جنود الله يأخذ دوره في المعركة، فيحل الرعبُ في قلوبهم وهم الذين كانوا قبل سويعاتٍ قد وضعوا السيف في المسلمين فقتلوا منهم مقتلةً عظيمةً لم تستثنِ أكابرَهم كحمزة عم الرسول أسد الله وأسد رسوله.

دبّ الرعبُ فألغى دورَ العقل، وكبتَ زهوة الظفر الذي ذاقوه قبل لحظات، فأسرعوا عائدين إلى مكة متخلين عن إصرارهم على مهاجمة المسلمين، وكفى الله المؤمنين القتال فعادوا إلى المدينة بعد ثلاث ليال من البقاء في حمراء الأسد في انتظار العدو. وهكذا يهيئ الله أمراً من عنده لعباده الصالحين إن اتقوا وأطاعوا، فلا يعود للأسباب المادية تأثير عليهم، ولا يبقى عجزهم الظاهر عجزاً، فإن لربهم تدبيراً يحكمه سبحانه كيف يشاء.

إن هذه المعركة قد تكون من أكبر المعارك أثراً في حياة المسلمين قديماً

(50) وقيل إنه كان مسلماً، وتعمد تخذيل المشركين والتهويل من وضع المسلمين.

وحديثاً،؛ فإن درسَها الأعظم ما يزال يتراءى أمام الجميع، ويحذرهم عاقبة ما هم فيه حين يرسم لهم بجلاء عاقبةَ معصيةٍ واحدةٍ من عددٍ من الناس قليل كيف قلبت الأمور رأساً على عقب وغيّرت نتائج المعركة، وكيف خلَصت الهزيمة إلى المسلمين وفيهم رسولُ الله حتى أوذي هو بنفسه وسقط في المعركة عددٌ من أصحابه، فهل يحقّ لأحدٍ منا أن يتساءل باستغراب اليوم: لماذا صار المسلمون في هذه الحال المنكرة من الذلة والهوان والهزيمة؟

۞ غزوة مؤتة = 8 هـ = [51] تطبيقٌ عمليّ للقيادة النبوية في غير حضور النبي ﷺ

أعدّ النبي ﷺ جيشه للتوجه إلى الروم، وأمّرَ عليهم ثلاثةً منهم بالتعاقب: (زيد بن حارثة، فجعفر بن أبي طالب، فعبدالله بن رواحة)، وكان عدد الجند 3000، وأوصاهم وصيته، وأمرهم أن يأتوا المكان الذي قُتل فيه الحارث بن عمير، وأن يدعوا مَن فيه إلى الإسلام، فإن أجابوا كفّوا عنهم، وإلا فليستعينوا بالله وليقاتلوا.

فلما وصلوا (معان) في الشام جاءت الاستخبارات تبلغهم أن جيش الروم يضم مئتي ألف، نصفهم من الرومان، ونصفهم من نصارى العرب، فالفارق بين القوتين رهيب، وهذه بلاد العدو وهو أدرى بها، وموقفه فيها أقوى وأشدّ. فجلسوا

(51) أخذت غزوة مؤتة من مصادر متعددة منها: ابن هشام، البداية والنهاية، السيرة النبوية للندوي، الرحيق المختوم.

يفكرون واتبعوا منهج النبي في الشورى، فعقدوا مجلساً استشارياً جمع القادة من أهل الرأي، وتدارسوا الوضع، وتبينوا أحوال المكان والقوى، ووضعوا الاحتمالات المختلفة، ثم أخذوا الآراء التي لم تتشعب بل كادت تتفق على رأي واحد هو أن يكتبوا إلى الرسول ﷺ فيخبروه بعدد عدوهم، وعندها إما أن يرسل لهم المدد بالرجال، وإما أن يأمرهم بأمره فيمضون له.

وجد هذا الرأي صدى عند الحضور حتى انطلقت الكلمات من بين شفتي عبدالله ابن رواحة تصيب ذاك الصدى في مقاتله: ياقوم.. والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وإنا لا نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة.

كلمات اقتبست من الروح النبوية، استقرت في الأفئدة فأثارت حماستها وأشعلت شوقها للجنة وللقاء ربها، وسقت بذورَ اليقين فأحيت نباتَ الثقة، وأزهرت في كلماتهم: قد والله صدق ابن رواحة.

كلمات تسير على الخطّ النبوي الذي زرع الجنة في النفوس، وجعلها غايةً عليا تهون دونها كل الصعاب، وتعيد لنا ذكرى قريبة منذ سنوات ست لتكون مثَلاً على هذا الحرص من أمثلةٍ كثيرةٍ مضيئةٍ في تاريخنا، ذلكم هو عمير بن الحمام البدري[52]، فقد استحث الرسول ﷺ المسلمين في بدر على لقاء العدو فقال: (قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض). فقال عمير: يارسول الله، جنة

(52) أصل القصة أورده ابن هشام 627/1

عرضها السموات والأرض؟ قال: (نعم). فقال: بخ بخ. فقال رسول الله ﷺ : (ما يحملك على أن تقول بخ بخ؟) قفال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: (فإنك من أهلها).

أفبعد هذه الكلمة ينتظر؟ ما بينه وبين الجنة بعد هذه الشهادة النبوية إلا أن يستشهد فكيف يتهاون؟ كانت في يده تمراتٌ يأكل منها يتقوى بها، فإذا به ينظر إليها ويستكثرها وما تحتاجه من وقت ليأكلها بعد هذا الوعد فقال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياةٌ طويلةٌ. فرمى بها من يده، ورمى بنفسه في معمعة القتال وانتقل بإذن المولى إلى حيث استعجل.

وصاحبٌ له كان قد قال للنبي ﷺ يوم بدر يا رسول الله، ما يضحك الربّ من عبده؟ قال: (غمسه يدَه في العدو حاسراً) فنزع درعاً كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتل[53].

تلك مواقف شبيهة، وأشجارُ إيمانٍ باسقة، وها هي كلماتُ ابن رواحة تستنفرهم لمثلها.. كلماتٌ مفعمةٌ بالثقة بالله وبالاعتزاز بدينه، كلماتٌ تؤكد "مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم" [54]، وتمضي في سبيل الله غيرَ مبالية بالنتائج لأنها أدّت ما عليها فكأنها تقول:

لأمرٍ علينا أن تتمّ صدورُه *** وليس علينا أن تتمَّ أواخره

---

(53) انظر ابن هشام 1/ 627،628

(54) قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٦٠ ﴾ (الأنفال:60)

ولأن النتائج في كل الحالات هي في صالحها: فإما النصر، وإما الشهادة والجنة.

وهكذا تحفزت الجموع المؤمنة، واستعدت للقاء العدو، ولكنه أيضاً لن يكون تحفزاً يوردهم مواردَ الهلاك، فليسوا ممن تدفعهم الحماسة إلى التهور، إنهم أهل عقل وحكمة ووعي وتخطيط، يحسبون للأمور حسابها ليتمثلوا بحق قول الله تعالى: "مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم".

وعليهم الآن أن يفكروا في طريقة تلغي التفوق العددي للعدو، وتحفظ لهم أرواحهم لأن حبَّ الشهادة يجب ألا يجعلهم يفكرون في الموت فقط، بل النصر هو المطلب الأول إعلاءً لكلمة الله تعالى وإعزازاً لدينه، ولأن كثيراً من الناس قد تكون حياتهم ذاتَ قيمةٍ أكبر للدين، ولذلك فإن من دعاء المؤمن أن يقول: (اللهم إني أسألك شهادةً في سبيلك بعد حياة طويلة في سبيلك).

وماذا ينفع الدينَ إن هم أبيدوا وتحدث الناس أن جيش المسلمين تصدى لعدو لا يقدر عليه فأباده؟ لهذا ولأنهم قد تمرسوا في الخبرة القتالية والتخطيطات الاستراتيجية واستفادوا من تجاربهم مع قائدهم الرسول ﷺ فقد طوعوا أرض المعركة وضموها لصالحهم ـ كما فعل قائدهم من قبل ـ لتقاوم حاجز العدد الذي يمنح العدو نقطة قوة، مع تأكيد اعتماد مبدأ حماية الظهور وتقليل الخسائر.

لو التقوا في مكانٍ مكشوفٍ فالنتيجة واضحة: مئتا ألف مقاتلٍ مقابل ثلاثةِ آلافٍ مكشوفين في العراء، إن أحاط الأولون بهم صاروا كنقطة مداد وقعت في نهر فالتهمها ولم يبق لها من أثر. ومهما قَتل المسلمون من العدو فلن يؤثر في

عدده الكبير، لكن سيسقط العدد الصغير صريعاً. وكان الحلّ هو تجنب المناطق المكشوفة وإلجاء العدو إلى التخلي عن عدده الكبير بحيث لا يكون إلا كجندِ احتياط في المؤخرة، وليقتصر المحاربون على عدد يساوي عدد المسلمين فيفقد العدو نقطة تفوق رئيسية.

فانحاز المسلمون إلى قرية صغيرة هي قرية مؤتة ذات الطرق الضيقة التي لا يستطيع العدو الدخول فيها إلا جماعات صغيرة، فكان المسلمون يتصدون لها، ويستحر القتل في العدو، ويتقدم المسلمون ويرتجز القادة أراجيز عذبة ترغب في الجنة وتمني النفس بالقرب منها إلى أن سقط الثلاثة كلهم شهداء في أرض المعركة.

ولأنهم تربية المدرسة النبوية فقد ثبتوا ولم يجزعوا أو تتخلخل جموعهم، وصاح صائحهم عقبة بن عامر بعزة: يا قوم يُقتل الإنسان مقبلاً خيرٌ من أن يُقتل مدبراً. فزاد ثباتهم، وأعادوا الكرة في التشاور حين حمل الراية قبل سقوطها ثابت بن أقرم العجلاني البدري ـ ممن شهد بدراً ـ داعياً من يحملها، فقالوا له وسط صخب المعركة: أنت. فقال الجندي المؤمن غير الطامع في المناصب وهو يشعر أن في القوم من هم أحق منه: ما أنا بفاعل.

فتشاوروا سريعاً واتفقوا على خالد بن الوليد فقدمها له ثابت راضياً ومضى يقاتل. وتولى القيادة خالد ذو الحنكة الحربية والمهارة القتالية الفائقة في جيش العدو من قبل، فكّر كيف ينسحب بالجيش آمناً، فإن القتال منهِك والعدد قليل وجموعُ العدو مهما قتل منها يأتي مَن يقوم مقامهم من المئتي ألف حيث ينتظرون قرب القرية، وكلما لا ح لهم فراغٌ سدوه، وقاتلوا، ولو استمر الأمر على ذلك لكانت الهزيمة محققة بسبب ما يلحق بالمسلمين من أذى وإنهاكٍ من شدة القتال

المتتابع.

ولكن الدروس النبوية علمتنا العزة، فكيف ننسحب ليلحقَ بنا عار الهزيمة أو إثم الفرار من الزحف؟ وكيف نمنح العدو بانسحابنا فرصةَ تتبّعنا وإبادتنا ونحن في وضعٍ قاسٍ من الإرهاق والشدة بعد القتال؟

وكان من الدروس النبوية التمويه بإعلان وجهة غير الوجهة المقصودة أو التبديل في الوضع ليوهم بغير حقيقته، والقرآنُ نفسه يقول في غزوة بدر: ﴿ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً ۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرًا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرًا كَانَ مَفۡعُولاً ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ الأنفال: 43-44.

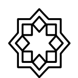
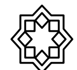
لهذا عمد خالد إلى تكتيك جديد، فغير مواضع أفراد الجيش الإسلامي، فجعل أهل الميمنة في الميسرة، ودفع أفراد المقدمة إلى المؤخرة، وغير الأوضاع كلها. وطلب منهم إثارة جلبة وأصوات عالية بهتافاتهم، وبحوافر خيولهم لتثير نقعا يحجز بينهم وبين العدو فلا يرى ذاك التغيير وقت حدوثه، ويظن أن نجدة قد وصلت للمسلمين وكان ذلك بالفعل، ووقع الشك والقلق في نفس العدو فلئن كانت هذه الفئة القليلة ثبتت منذ أيام وأوقعت هذا الكم من القتلى فكيف بهم وقد جاءتهم عدة وعتاد؟

وكان التكتيك الجديد أن يتراجع المسلمون في قتالهم قليلاً قليلاً، فلما بانت نتيجة التراجع ظن الرومان أن المسلمين يتعمدون إدخالهم إلى مكانهم وسط

المسلمين ليجهزوا عليهم بعد أن جاءهم المدد فلم يتبعوهم. وعاد المسلمون أدراجهم آمنين، لا يلحقهم عدوهم، وقد نجوا من تلك الجموع الكبيرة وأراحوا أنفسهم من عناء قتال متواصل.

ولما عاد الجيش الإسلامي إلى المدينة تبعه الصبيان الذين يرون ـ على صغرهم ـ أن الفرار من المعركة عارٌ وذنبٌ يقولون: يا فُرّار فررتم في سبيل الله. فقال رسولُ الرحمة ﷺ : (ليسوا بالفُرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى).

وكانت هذه الغزوة ذاتَ أثرٍ كبيرٍ في رفعِ مكانة المسلمين وسمعتهم، وألقت الدهشةَ والحيرةَ في نفوس أهل الجزيرة؛ لأن الرومان أكبر قوة وأعظمها، والعربُ تظن أن قتالها هو الموت نفسه، والمقدِم عليه طالبٌ موتاً سريعاً، فأسلمت بعد هذه الغزوة قبائل كثيرة من بني سليم، وبني أشجع، وغطفان وذبيان وغيرها، وكلها كانت بالأمس من الجماعات التي احتشدت لحرب الدولة الإسلامية في (الأحزاب)، فسبحان من جعل التطبيق الدقيق للقيادة المرتضاة سبباً في صداقة عدوّ الأمس! وسبحان مَن هيأ للعرب فرصة التفكير الجاد في الخروج على سيطرة الرومان والاستقلال بأنفسهم بعيداً عن ظلمهم عندما رأوا قوة المسلمين الصغيرة صامدةً أمام هذه الأعدد الهائلة، فأزاحت ما كان في قلوبهم من خوفٍ يمنعهم حتى من التفكير في الخروج على طاعة الأسياد الذين شاع عنهم أنهم لا يُقهرون! وكم من مغرورٍ متغطرسٍ معجبٍ بآلته العسكرية يشيع عن نفسه أنه لا يقهَر يريد تحدي سنن الله في الكون فتحطم جبروتَه الزائف قوةٌ صغيرة، وقد تكون مجردةً من السلاح إلا سلاح الإيمان، فاللهم انصر.

المبحث السادس: الوفي

كان ﷺ مجمعَ الأخلاق الكريمة، ومنبع الشمائل الرفيعة، ومهوى الأفئدة المتطلعة لقمم السمو والنقاء.

يا مَن له الأخلاق ما تهوى العلا ** منها، وما يتعشق الكبراء

وإن تلك الصفات لحريةٌ بإفراد الأسفار، ولن تكفي للإحاطة بجلال قدره، وعظيم شأنه، ورقيّ خلقه، ويكفيه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ القلم: 4.

ونجتزئ من أخلاقه الحميدة بصفةٍ واحدةٍ هي صفة الوفاء. ونحاول أن نستقصي مظاهر هذا الخلق النبوي العظيم، ولن يكون استقصاءً فعّالاً أبداً، لأن مواقفه أكثر من أن ينالها الحصر في مثل هذه العجالة.

۞ أمر الرسول ﷺ عثمانَ بن طلحة وهو من حَجَبة البيت أن يأتيه بمفتاح الكعبة فجاء به، ففتح البيت ودخل عزيزاً لا يردّ له رأي، وكان في يوم ما قبل هجرته إلى المدينة قد طلبه من حامله عثمان هذا، لكنه أغلظ له القول، فردّ عليه الرسول ﷺ : (يا عثمان لعلك ترى يوماً هذا المفتاح بيدي، أضعه حيث شئت). فقال عثمان: لقد هلكت قريش يومئذ وذلت، فقال ﷺ : (بل عمرت وعزت يومئذ). واليوم سلمه المفتاح بيده فدخل البيت، ولما خرج منه سأله عليّ بن أبي طالب ابن عمه وصهره وحامل ألوية معظم غزواته أن يجمع لبني هاشم الحجابة والسقاية، لكنه ﷺ استدعى عثمانَ من جديد ودفع إليه المفتاح مع العهد

الخالد: (اليوم يومُ برٍّ ووفاءٍ[55]، خذوها خالدةً مخلدةً قد دفعها الله إليكم ولا ينزعها منكم إلا ظالم). وما زالت إلى اليوم فيهم، لا يجرؤ حاكمٌ أو رئيسٌ على أخذ المفتاح منهم لئلا يوصف بعار الدهر.

۞ قعد رسول الله ﷺ بعد غزوة بدر يستقبل ما أرسله أهلُ مكة لفداء أسراهم الذين وقعوا بأيدي المسلمين، ووُضع بين يديه كيسٌ ففتحه وهو يسمع قول حامله: هذا بعثته زينب بنت رسول الله ﷺ لفداء زوجها أبي العاص بن الربيع. وخرجت اليد الشريفة من الكيس بقلادة، فأطالت العين النظر فيها، وأرسلت الذاكرة رسائلَ الماضي حين كانت هذه القلادة في جيد الطاهرة خديجة، ثم وهي في يديها تلبسُها زينبَ ليلةَ زفافها. واستقبل القلبُ رسائلَ الذاكرة فكادت العين تفيض بما تحرك من عواطفها الكامنة في القلب الرقيق، واستقبل رسالةً أخرى من ذاكرته القريبة حين سعى المشركون في تطليق بنات الرسول ﷺ، فنجح مسعاهم مع عتبة وعتيبة ابني أبي لهب، أما العاص زوج زينب فقد أبى عليهم ما أرادوا، ورفض عرضَهم بتزويجه بمن شاء من نساء قريش وقال: لا والله لا أفارق صاحبتي، وما أحب أن لي بامرأتي امرأةً من قريش. فقال رسول الله ﷺ يثني على الأسير: (والله ما علمتُ عنه إلا خيراً) فلم يكن ممن شارك يوماً في قتال المسلمين أوآذاهم، ثم قال يعرض عليهم أمراً: (إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردّوا عليها الذي لها فافعلوا)[56]. فرضوا جميعاً وأطلقوه وردوا مال الفداء عليها، فكان أحدً من أُطلق بلا فداء، وتكرر معه أمر يشبه هذا في مستقبله، فكان سبباً

(55) ابن هشام 2/ 412.
(56) البداية والنهاية 3/ 356.

في إسلامه قبل فتح مكة، وله قصة تطول.[57]

۞ ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي تذكّر فيها الرسول ﷺ خديجة، بل هو في تذكار دائم، ووفاء دائم ﷺ. كان إن أتي بهدية قال: "اذهبوا بها إلى بيت فلانة فإنها كانت صديقة لخديجة، إنها كانت تحب خديجة". وحين سمع مرة استئذان هالة بنت خويلد أخت السيدة خديجة تذكر خديجة واستئذانها الشبيه بما يسمع الآن فتذكر وقال: (استئذان خديجة!)، يشبهه بأسلوب خديجة في استئذانها وقال: (اللهم هالة)[58] فقد كان حريصا على صلة قريباتها وصديقاتها وتمنى أن تكون هي التي تستأذن في الدخول لكي تتاح له فرصة إكرامها، وكانت هي حقا.

وجاءته امرأة مرة وبين يديه لحم، فقرّبه إليها وجعل يناولها إياه، ويحتفي بها احتفاءً بالغاً، فلما خرجتْ قالت عائشة: يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟ فقال: (إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حُسن العهد من الإيمان)

۞ وقال رسول الله ﷺ في أسارى بدر: (لو كان مُطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النتْنى لأطلقتهم له). كلماتٌ تنضح بالوفاء والاعتراف بالجميل، واستثناءٌ لا يمنحه رسول الله ﷺ لأحد ولا للمسلمين، لكنه يحققه لرجلٍ واحدٍ مشركٍ، لما كان له من مواقف خيّرة، فهو الذي دخل الرسول ﷺ مكة في جواره عند عودته من الطائف، بعد أن أساء أهلها استقباله وأبلغوا قريشا بقدومه عليهم

(57) لقراءة القصة الممتعة انظر: تهذيب ابن هشام 122، والقصة نفسها مع مأساة زينب عند قدومها إلى أبيها في البداية والنهاية 3/ 375.

(58) البخاري، كتاب ا لمناقب، باب تزويج النبي خديجة وفضلها.

يدعوهم للإسلام فاشتدت حملتها ضده، كما أن المطعم نفسه كان واحداً من أشد المناهضين للصحيفة الظالمة أيام المقاطعة، ومن أنشط الساعين في نقضها، بل هو الذي مدّ يده لينتزعَها من جدار الكعبة ويشقها، بعد أن ألحقت الأذى بالمسلمين جوعا وعزلا وإنهاكا لكل قواهم، ولم يعهد عنه أي خطأ في حق الإسلام كما كان يفعل بقية كفار مكة.

۞ أثناء مناقشة بنود معاهدة الصلح في الحديبية استعدادا لكتابتها بيد سهيل بن عمرو جاء (أبو جندل) ولدُه فارًّا من حبس أبيه، ويداه ما تزالان مقيدتين، فألقى نفسه بين المتعاهديْن: والده، ورسول الله ﷺ، مستنجداً بالثاني من الأول وقومه، وكان من الشروط التي أرادتها قريش أن يرد المسلمون كلَّ من يذهب إليهم مسلما من المشركين دون أن يفعل المشركون العكس.

فإذا بالوالد ينهض قابضاً على الابن المسلم بقوةٍ وخشونةٍ وهو يزجره ويسلمه لمن يعيده إلى حبسه، فيقول الرسول ﷺ : ما زال العهد لم يكتب. فرفض سهيل وهدد بالامتناع عن إكمال الصلح.

قال ﷺ : فأجزه لي. قال سهيل: ما أنا بمجيزه لك. قال ﷺ : بلى.. فافعل.[59]

فأبى سهيل وقال بصلف: ما أنا بفاعل. يا محمد لقد لجت القضية بيني وبينك.

فيقول الرسول الوفي ﷺ : (صدقت).

(59) ذكر البخاري حديثاً طويلاً، وفيه قدوم جندل والجدل حوله، في كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط.

لم تُكتب المعاهدة، وإنما هي مناقشة شفوية لم تصل إلى حد التوثيق، لكنه شرف الكلمة، وأمانة المسلم، فيتوجه الرسول ﷺ إلى المبتلى المستغيث أبي جندل: (اصبر واحتسب فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك فرجاً ومخرجاً[60]). واعتذر عن فعله موضحاً السبب بقوله: (إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك عهداً، وإنا لا نغدر بهم).

وفاء نادر الوجود وفاء لعهد غير مكتوب، يرى صاحبَه معذباً يستغيث به خائفاً من أن يفتنوه عن دينه ولا يمد إليه يده لينقذه وفاءً لعهد لم يكتمل الاتفاق عليه بعد، وإن أصر على استعادة المظلوم المستنجد فهو على حق لأن العقد لم يوقع بعد، وما عليه ملامةٌ في نصر صاحبه عند كل منصفٍ، لكنها الثقة في أمر الله، والحرص على الكلمة، والالتزام بخلق الوفاء الذي صار بتلقائية مبعث الأفعال ومنبع التصرفات.

۞ في أعقاب غزوة حنين كانت غنائم المسلمين كثيرة لأن قبائل هوازن ومن حالفها قد أتوا بأموالهم وأنعامهم ونسائهم، فكانت كلها من نصيب المسلمين بعد النصر، ففرقها الرسول ﷺ في القبائل المسلمة وخص قريشاً بقدر كبير منها، ولم يعط الأنصار شيئاً منها. فخشوا أن يكون ذلك نتيجة خطأ منهم، أو أنه استبعادٌ لهم، وظن بعضهم أنه ﷺ قد سعد بعودته إلى داره، ولا يريد العودة معهم، فحزنوا لذلك، وقال بعضهم: إن هذا لهو العجب، يُعطي قريشاً وسيوفنا

(60) تم لهم ذلك بفضل الله عند اجتماعهم مع أبي بصير، أحد المعذبين المردودين، وقيامهم بقطع الطريق على قوافل قريش وتجارتها حتى أضروا بها، فسعت إلى الرسول ﷺ تطلب منه أن يردهم إليه ليتخلصوا مما يلقونه من الأذى منهم.

تقطر من دمائهم؟ وأبلغ سعدُ بن عبادة رسول الله ﷺ بمقالهم وما وجدوه في أنفسهم. فقال ﷺ : اجمع لي القوم. ففعل، والتقى بهم لا يشاركهم غيرهم في هذا اللقاء.

وسألهم: (يا معشر الأنصار ما مقالة بلغتني عنكم؟ ألم أجدكم ضُلالاً فهداكم الله بي؟ وعالةً فأغناكم الله بي؟ وأعداءً فألّف الله بين قلوبكم بي؟) فاعترفوا بالفضل: بلى، والله ورسوله أَمَنّ وأفضل.

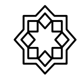
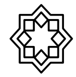
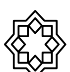
ولو أنهم كانوا من ذوي المنّ وقليلي الإيمان لعيروه بنصرهم له، أو ظنوه يعيّرهم بذاك، لكن ردّهم هو دليل إيمانهم العميق، فسألهم: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ فتساءلوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المنّ والفضل.

فجاءهم التشريف المحمدي اعترافاً بسبقهم وتضحيتهم وصدقهم: (أما والله لو شئتم لقلتُم، فلصَدقتم ولصُدّقتم: أتيتنا مكذَّباً فصدّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فواسيناك. أوجدتم عليّ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعُاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكَلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضوْن يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لما تنقلبون به خيرٌ مما ينقلبون به، ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً ووادياً وسلكت الأنصار شعباً ووادياً لسلكتُ شعب الأنصار وواديها، الأنصار شعار، والناس دثار) ثم ختم بالدعاء لهم: (اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناءَ أبناءِ الأنصار)[61].

(61) أورد البخاري عدة أحاديث في ذلك في كتاب المغازي، باب غزوة الطائف في شوال. وانظر ابن هشام 2/ 498 باب (وجد الأنصار).

(وكلتكم لإسلامكم) ومَن مِن الناس يملك عينيه وهو يقرأ تلك الكلمات؟ فكيف إن كان من أحفاد الأنصار أو من أهل المدينة؟ أعظم وسام وأجل شهادة يفوز بها المرء في الدنيا أن يثق رسول الله ﷺ في إسلامه. وأكبر هدية وأوفر غنيمة أن يعودوا برسول الله ﷺ معهم فيما يعود الناس بالشاة والبعير وبحطام الدنيا. فانطلقت مشاعرُ الأنصار وعواطف قلوبهم في كلماتٍ محشرجةٍ بالدمع مسبوقةٍ به: رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً.

فكان ﷺ وفياً لمن آزره وآواه، ونصره بنفسه وماله وأرضه، لم يتركهم، ولم يعد إلى بلده بعد أن دان له، بل صحبهم قائلا: (المحيا محياكم، والممات مماتكم)، وسجّل لبلدهم شرفَ الدهر، فكان فيها حيًّا وميتاً، فصارت أقدس البقاع لما ضمته من أطهر الأجساد فوقها ثم تحتها.

نورٌ .. من السراج

حريصٌ عليكم

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ التوبة: 128.

نعم.. هو علينا حريص، وبنا رؤوف رحيم، وما أجلّها من صفات تقتبس من نور الرب فتمشي على الأرض بحلة بهاء وإشعاعات ضياء تتفقد فقراء القلوب، وترشد الضالين إلى الدرب.

هو علينا حريص.. بذل وقدّم، صبر وثبت، ضحّى وفَدى، لم ترعه الفتن، ولم تغيره المحن، ما انفك في لحظة من عمره عن التفكير للأمة، والاطمئنان على حاضرها، والتخطيط لمستقبلها. ما انفك يعلم ويوجه، ويربي ويشجع، يفجّر الطاقات ويكافئ المهارات، وما توقف فؤاده لحظات عن الحزن على حال البشر إذ لم يهتدوا حتى خاطبه ربه: ﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ الشعراء: 3.

لم يدخر جهداً أو يضن بوقتٍ في سبيل توصيل كلمات الله وتبليغ دعوته، فمنذ أول كلمة هزت جنانه تحثه على العلم والقراءة وحمل المسؤولية إلى أن رقد تحت وطأة المرض الأخير، وعينه على المسلمين في صلاتهم، ولسانه يحمل الوصايا الأخيرة وهو ما ارتاح لحظة، ولا هدأ هنيهة، فحياته عمل وجهاد وبناء، أصعب بناء: يربي النفوس، ويهذب الأخلاق، ويصد الأعداء.. يوجه بالكلمة الحانية، والفعل الرقيق، والنظرة الشفوق.

ومن حرصه أنه علمنا كثيراً قولاً وعملاً، علمنا بالقدوة، وترك سيرته لنا تحمل تطبيقاً متفرداً للرسالة، ومما علّمَناه تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾ البقرة: 143:

(((التوازن))).

فما أكثر ما يشطّ الإنسان إلى طرفي غلوّ من إفراط وتفريط! لكن القدوة علمنا بالمثِل الحي منه ومن صحبه كيف نقيم التوازن في الحياة، وعلى ضوءِ الآيات التالية سنرى شيئاً من ذلك:

- ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا ﴾ القصص: 77.
- ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٦٠ ﴾ الأنفال: 60.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧ ﴾ محمد: 7.

﴿ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ الأنفال10+ ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ﴾ الطلاق: 3.

۞ فهو ﷺ في جهاد متواصل لكنه لا يتركه يمنع نفسه من ممارسة الحياة الطبيعية التي ارتضاها الله لعباده، قال عليه السلام يحكي عن نفسه توازن حياته: "أما والله، إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقُد،

وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني"[62].

ولم تمنعه الدعوة التي منحها حياتَه وروحه وفكره من أن يداعب أحفاده الحسن والحسين أبناء ابنته فاطمة من علي بن أبي طالب ابن عمه، فكان يلعب معهم، ويقبلهم، ويضحك لهم، ففي هذا إشباع للنفس الإنسانية، وفيه بناء للنفوس القوية لهؤلاء الصغار لكي يكونوا رحمة للعالمين، وحملةً للواء الدين القويم في المستقبل، وفيه ضمان لنشأة سوية، وإرواء لعاطفة أبوية، وتوازن مبهر في حياة حامل الهم الأكبر وهو إبلاغ الرسالة السماوية لأقطار الأرض وأفراد البشرية.

فالحياة تحتاج إلى إعمارٍ فإن تفرغ المسلم لجهاد نفسه أو جهاد عدوه . هذا إن افترضنا أن جهاد النفس يتحقق تحققاً كاملاً بالابتعاد عن الناس . وأغفل أمر الدنيا فمن لها يقيم دعائمها ويعمّر أركانها؟ أتُترك لغير المسلم ليعيث فيها فساداً والمسلم منعزلٌ في صومعة لا يغادرها وقد ضل طريقَه لإرشاد العالم؟

ليس ذاك بهدي الإسلام، فالإسلام منهج حياة يشمل الدين والدنيا، الحُكمَ والحياة الخاصة، وهو مع العمل في الدنيا تبليغٌ لرسالة النور بالعمل الصالح الموافق الشرع الله وبحكم الأرض وفق المنهج الحق ليجتذب النفوس ويقيم العدالة والسلام على وجه البسيطة، هو تبليغ للرسالة ينقلها من حيز النظريات الفكرية والإيمان القلبي إلى ميدان العمل الواقعي، ولا يغفل عن الصلة بالخالق وتطهير النفس لتكون أهلاً لتلك الصلة وأهلاً للقيادة.

(62) صحيح البخاري .كتاب النكاح . باب الترغيب في النكاح، حديث رقم 5118.

والتوازن في حياته ﷺ شاملٌ لكل شيء، حتى أخلاقه متوازنة على عظمِهِ في كل خلقٍ منها، فالتواضع لا يغلب العزة، والحلم لا يغلب الحزم والغضبَ لله، والصبر لا يفوق الشجاعة، والزهد لا يبز البر والكرم.

۞ وهو ﷺ سيد المتوكلين وإمام المتقين، منح حياته لنصرة دينه، فمنحه الله النصر، وفتح على يديه البلاد، وخضع تحت سلطانه كل معاند جبار أذاقه بالأمس صنوف الأذى وألوان العذاب.

ووفق تلكم الآيات وذلكم المنهج الرباني الحكيم أقام التوازن في الحياة كلها ومنها أمور الحرب وشؤون القتال، فحرص على الأخذ بأسباب الدنيا، ولم تدفعه قلةُ الإمكانات إلى التهاون في العمل، ولا الاحتجاجُ بقوة العدو إلى إهمالِ واجبِ الإعداد والاحتياط والتزود بالأسباب. إلا أنّ ذلك كله لم يكن في مقياسه هو الضامن للنصر.

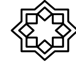
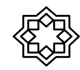
إنه الاستجابة لأمر الله والسير وفق سنته في الكون مع تعليق القلب به في كل خطوة، ثم الالتجاء له وحده وتفويض الأمر إليه فهو صاحب النصر ومدبر النصر ومانح النصر. وبهذا حقق التوكل المطلق فلم يحتقر أسباب الحياة ولم يفتقر إلى التضرع وصدق اللجوء. وهكذا كان أصحابه يتحدون مشقات الحياة ورغبات النفس ويحرصون على الإعداد بكل قوة في ملكهم مع صدق التوجه إلى الخالق ولهج اللسان بالذكر والاستنصار، فيحققون جميعاً النصرَ المؤزر بإذن الله الذي يهبهم النصرَ نصرةً لهم جزاءَ نصرتهم له وإن لم تكن قوتُهم تكافئ قوةَ عدوهم أو تقترب من نصفها، فكلٌّ قد أعدّ ما استطاع وذاك هو المطلوب. فيمنح النصرَ بإذنه، فينزل جنداً من عنده لنصر عباده كما أنزل الملائكة ببدر، وهيأ الأرض

للمسلمين، وأمدهم براحة نفسية بالنوم وتقليل العدو في أعينهم، وتقليلهم في أعين العدو، وكما قذف الرعب في قلوب الأعداء أو سلط عليم الريح فتبددت جموعهم وتناثرت قواتهم ونبذتهم حصونهم فأضحوا كأنهم هباءٌ منثورٌ، وأمسى المسلمون مكللين بتاج النصر والعز، وكفاهم الله القتال في عدة مواطن حين علم صدقهم وحسن بلائهم.

وقد رأينا فيما تقدم حسنَ إعدادهم في الخندق، وأخذهم بأسباب النصر الأرضية، مع حسن توكلهم على الله، ولجوئهم إليه، والإلحاح عليه بالدعاء. ورأينا في مؤتة عزّتهم، وخروجهم لنصر الدين وتثبيت هيبته وإعلاء كلمة الله، وعدم تراجعهم في سبيل ذلك حين رأوا الفارق الكبير في العدد والعدة بينهم وبين عدوهم، وأقدموا باسم الله واثقين فيه، مفوضين الأمر له. وفي تبوك تشابه الوضع فكانت في وقتٍ عصيبٍ، في جوّ حار، وقلةٍ في الزاد، ونقصٍ في الراحلة، مع طول الطريق الوعر، وقرب موسم نضج الثمار، وتوقع لقاء عدو ضخم العدد قوي العتاد. لكنهم خرجوا بجموع كبيرة، لم تغرهم الدنيا، ولم يخفهم العدو، ولم ترهبهم مشقة الدرب، فحق على الله النصر تحقيقاً لوعده: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ الروم: 47.

وهكذا تتنوع الحياة ما بين عملٍ للآخرة وعملٍ للدنيا يصبّ في مصلحة الدين والدنيا والآخرة، وتصبح معه متاع الحياة الدنيا أساساً لحياةٍ سويةٍ متوازنةٍ في سبيل الله، ويبقى رسولنا ﷺ هو مَن يمنحنا التطبيق العملي الكامل، وهو الذي وصلنا الدينُ عنه بفضل ما قدم لنا وهو يثبت في كل لحظة من الوقت وكل قطرة من العرق أو الدم، وكل صغيرة أو كبيرة من فعله في حياته أنه حريص علينا،

يوصل لنا نفحات الخير، ويمهد الطريق لنرتقي إلى القمة التي تعادل قمة الدين الذي شرفنا الله به، وجاهد رسولنا في إيصاله. ولنستمد من هذا الحرص محبةً نبويةً تشرق في حنايا القلوب بفيض الإيمان، وعظيم الإجلال والإكبار لسيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه.

الخاتمة

الحمد لله على ما أتم من نعمة بإتمام هذا العمل الصغير، فله الحمد على آلائه، وأسأله تعالى أن لا يحرمنا أجره، ولا يبعدنا عن نبيه، ولا عن دفء ظلاله وبرد العيش في رحابه، فلقد كانت أياماً طيبةً، ولحظاتٍ قيمة مع خاتم الرسل ﷺ.

وكم تمنيت أن يطول بي المقام في هذه الساحات الزكية للاغتراف منها، ونقل ما أغترف من منابع السيرة إلى قلمي الضعيف ليخرجها من جديد محملةً بمشاعر الإكبار والتقدير، منغمسةً في بحر الانبهار الكبير، لابسةً رداء أسلوبي الخاص، مغموسة في قاموسي الشخصي، لكن حجم الكتاب الذي أردته أن يكون عليه يكتفي بهذا القدر، فهذا الكتابُ ليس تأريخاً أو تدويناً لأحداث، لذلك فلا ضيرَ من الإيجاز، أو التنقل عبر المواقف وانتقاء بعضها دون بعض.

ومع ذلك تبقى النفس عامرةً بالضياء الذي اقتبست من أنوار السيرة ولو لم نذكر كل أحداثها هنا، فما أعظم ما تفعَم به النفس من فخر وإيمان قي ظلال صلح الحديبية! لقد اعترض عليه الصحابة لأنهم قدّروا الأمور بظواهرها، ولم يطلقوا لأنفسهم مجال التفكر فيما وراءها، ولو فعلوا لعلموا أنهم إنما يمسكون مفتاح الفتح بتوقيعهم العهد، لقد صار الصلح ميداناً كبيراً لانتشار الدعوة إذ أصبح خيراً على المستضعفين في مكة، فأمن الناسُ بعضهم بعضاً، وصاروا يظهرون الشعائر ويتحدثون عن الإسلام حتى إنه كما يروى: (لم يُكلّم أحدٌ بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر)[1] وكان ذلك سبباً في فتح مكة بعدُ صلحاً لا قتالاً

(!) تهذيب سيرة ابن هشام: 122.

بعد أن سارع كثيرٌ من أهلها إلى الإسلام، فلم يقاوموه عند الدخول لفتحها.

وما أحلى تلك الدموع التي تسيل حين تقرأ أو تسمع قصة إسلام الناس جماعاتٍ وأفراداً! فيخفق القلب بوجيبٍ عجيبٍ، وتنهمر أمطارُ العين من السماء التي يحلق فيها القلبُ وهو في تلك الأجواء الربانية من الهداية والتوفيق والإيمان.

وما أكثر ما وددت أن أطيلَ من وقفاتي عند مكائد اليهود والمنافقين لأتتبع دسائسهم ومؤامراتهم، وفضحَ القرآن لهم، ثم خمود أمرهم بما صنعتهم أيديهم، حتى صار كبير المنافقين محتقراً عند جماعته نفسها، لا تأتمر بأمره، ولا تسمع قوله بعد أن كان معظّماً مهاباً فيها، كما نال اليهود جزاء أفعالهم الشنيعة اللصيقة بهم في كل زمان ومكان لأنها جزء لا يمكن فصله من نفسياتهم وطبائعهم.

هذا وإن الطواف في محراب الأخلاق النبوية يفعم النفس متعةً وإكباراً لما يقرأ ويسمع، وما يحس ويشعر، فلا يقوى على حبس الدمع مع ما في المواقف والخصال من عظمة وجلال، ومع تعدد الشمائل المصطفوية وتنوع الخصال المحمدية إلا أنني اجتزأت من خصاله ﷺ بالوفاء ممثلاً عن إخوانه من أخلاق رسول السماء ﷺ.

فهذا الإنسان صلى الله عليه وعلى آله وصحبه هو القدوة إن افتقدنا في حياتنا القدوة، ودينه هو العمل الذي ينبغي أن يشغل حياتنا كما شغَل حياته فسخرها له.

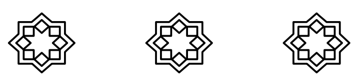
وتعلَقُ في ذهني كلمات من وصف أم معبد في طريق الهجرة النبوية أحب أن أختمَ بها: "إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاه من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، حلو المنطق، فصل لا هذر ولا نزر،

كأن منطقَهُ خرزاتُ نَظْمٍ يتحدّرن، غصن بين غصنين، فهو أنضرُ الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدراً".

اللهم تقبل منا، وعلمنا ما لم نعلم، وانفعنا بما علمتنا، واعف يا رب عن كل خَطَلٍ، وتجاوز كل زَلَلٍ، فإنما التوفيق منك وبك، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك، نسألك حلاوة الإيمان، ولذة العبادة والعمل. والحمد لله على تمام نعمه، وعظيم عطاياه، وجليل هباته، وصلى الله وسلم على أعظمٍ هادٍ، وأفصحِ ناطقٍ بالضاد، وخيرٍ من أتقن العمل وأجاد، وأفضلِ من أعطى وجاد: نبينا محمد وعلى آله الأطهار وصحابته الأخيار ما حلّ الليلُ وأشرق النهار، وما غرد الطير وطار.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين... وصل اللهم وسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين

شروق



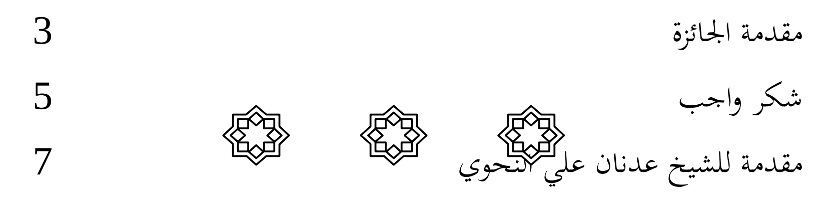
المراجع:

- الإصابة في تمييز الصحابة . الحافظ ابن حجر العسقلاني . دار إحياء التراث العربي.
- الأعمال الشعرية الكاملة . أحمد شوقي . دار العودة . بيروت . 1995م
- البداية والنهاية . ابن كثير الدمشقي . دار أبي حيان للطبع والنشر والتجليد.
- البردة . البوصيري . تعليق : أحمد عبدالتواب عوض . دار الفضيلة
- تهذيب سيرة ابن هشام . عبدالسلام هارون . مؤسسة الرسالة . بيروت . ط 20 . 1991م
- خواطر قرآنية . عمرو خالد . أريج للنشر والتوزيع . 2004م
- الرحيق المختوم . صفي الرحمن المباركفوري . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع . الطبعة الأولى 1991م
- الرسول ﷺ . سعيد حوى . دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة . الطبعة الثانية 1990م
- الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام . أبو القاسم السهيلي . تعليق مجدي بن منصور بن سيد الشورى . دار الكتب العلمية . الطبعة الأولى
- السيرة النبوية: أبو الحسن علي الحسني الندوي . دار القلم . دمشق . 2001م
- السيرة النبوية . ابن هشام . مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي . الطبعة الثانية 1955
- السيرة النبوية: دروس وعبر . مصطفى السباعي . المكتب الإسلامي . بيروت . ط9 . 1986م
- السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث . علي محمد محمد الصلابي . دار

التوزيع والنشر الإسلامية ـ مصر

- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ـ العسقلاني ـ دار أبي حيان للطبع والنشر
- فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة ـ محمد سعيد رمضان البوطي ت دار الفكر ـ دمشق ـ ط 10 ـ 1991م
- فقه السيرة النبوية ـ محمد الغزالي ـ دار إحياء التراث العربي ـ لبنان ـ 2002م ـ بعناية ريما إبراهيم شجاع
- في ظلال السيرة النبوية (غزوات الرسول) ـ محمد رجب البيومي ـ المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ـ القاهرة
- لسان العرب ـ ابن منظور ـ دار صادر ـ ط 1990م
- مع المصطفى ﷺ في عصر المبعث ـ عائشة عبدالرحمن ـ دار المعارف ـ مصر ـ الطبعة الثالثة 1992م
- ندوات الأسر في سيرة خير البشر ـ محمد عمر داعوق
- نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ـ محمد الخضري ـ تحقيق محمود قطان ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت
- هذا الحبيب محمد رسول الله ﷺ ـ أبو بكر الجزائري ـ دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ـ مصر ـ الطبعة الأولى ـ 1995م

المحتويات



نبذة عن الكاتبة

شروق محمد سلمان

مؤلفة كتاب (في أنوار النبوة)

* كاتبة إماراتية حاصلة على بكالوريوس اللغة العربية بتقدير امتياز
* صاحبة عمود (نبضات) الأسبوعي في ملحق شباب الخليج + زاوية (من المكتبة الإسلامية) في ملحق الدين للحياة
* عضو مجلس إدارة جمعية حماية اللغة العربية
* نائبة مدير تحرير مجلة (العربية)
* عضو رابطة أديبات الإمارات
* لها إصدار (درر بهية في مدح العربية)، وكتب أخرى تحت الطبع
* عملت في التدقيق اللغوي وإعداد البرامج الإذاعية والتلفزيونية
* صاحبة موقع أنوار القرآن ولمسات البيان

www.alanwaar.net
www.lamsaat.net

* البريد الإلكتروني: alanwaar@gawab.com

دررٌ تجلت من بديع خطوطها

تحكي حياةَ الهاشميّ المصطفى

بتناسق الأحداث زين عقدها

حتى غدت كالشمس تزهو في الضحى

وبيانها قل عنه دون تردد

أنوارُه كشروق بدر في الدجى

عدّ الحروف وضعفها قل معلنا

صلى الإلهُ على الحبيب المجتبى

وكُسيتِ نورا يا (شروق) بنظمها

وصعدتِ في الجنات أفضل مرتقى

أ.د/ عيادة بن أيوب الكبيسي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

كلية الشريعة ـ جامعة الشارقة